الدكتور مجيد الخليفة

كيف نقرأ

التاريخ الإسلامي



كَيْفَ نَقْرَأُ
التَّارِيخَ الإِسْلَامِيّ

الطبعة الأولى
١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م



دار أندلسية للنشر والتوزيع
حولي - شارع المثنى - مجمع البدري (مجمع المكتبات الإسلامية)
E-mail : darandalusia@hotmail.com
(+965) 94747176

الموزعون المعتمدون

دار الظاهرية للنشر والتوزيع
(الكويت)
daradahriah@gmail.com
(+965) 51155398

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 114925192

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع
(جدة)
hassan_hyge@hotmail.com
(+966) 504395716

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع
(مكة المكرمة)
alasadi2000@hotmail.com
(+966) 125273037

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع
(مصر الجديدة)
mofakroun@gmail.com
(+2) 01110117447

كيف نقرأ التاريخ الإسلامي

الدكتور مجيد الخليفة

دار أندلسية للنشر والتوزيع



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده حمد الشاكرين، ونستغفره استغفار المذنبين، والصلاة والسلام على النبي الخاتم الآمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإن من رحمة الله تعالى على أمتنا الإسلامية أن جعلها أمة أصيلة تختط مسارها بين الأمم، بمنهج رباني وسطي، لا شرقيٍّ ولا غربيٍّ، ، قائم على توحيد الله ﷻ، واتباع سنة خاتم الأنبياء، صاحب المقام المحمود، الذي جاء بكتاب محفوظ لا يأته الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه تزيل العزيز الحكيم، فيه العظة والعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

من هذا المنطلق كان النظر في الأحوال الماضية، والتجارب السابقة، من مفاتيح التوفيق في الأيام التالية، ولا يمكن لأمة من الأمم أن تبني حاضرها دون الاستفادة من تجارب ماضيها، والنظر في سير الأمم الأخرى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يُوسُف: ١١١].

قال ابن عاشور: «وفائدة التاريخ هو معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر.. وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك»[١].

والله تعالى يذكر من هذا وذاك ما شاء أن يذكر لأجل العبرة والموعظة، فيكتفي من القصة بموضع العبرة ومحل الفائدة، ولا يأتي بها مفصلة بجزئياتها

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٦٦.

التي لا تزيد في العبرة بل ربما تشغل عنها، فلا غرو أن يكون في هذه القصص التي يعظنا الله بها ويعلمنا سننه ما لا يعرفه الناس؛ لأنه لم يرو ولم يدون بالكتاب، وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين في هذه الأزمنة إلى الاقتداء بهذا، فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون منه الأحكام الاجتماعية وهو الأمور الكلية، ولا يحفلون بالجزئيات لما يقع فيها من الخلاف الذي يذهب بالثقة، ولما في قراءتها من الإسراف في الزمن والإضاعة للعمر بغير فائدة توازيه، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه، فلا يكون عرضة للتكذيب والطعن، كما هو الشأن في المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلاً(١).

ونحن سنحاول في هذه الورقات الإجابة عن سؤال مهم وملح في الوقت نفسه: كيف نقرأ التاريخ الإسلامي؟! وقد التمسنا طريق الإجابة فيه بالرجوع إلى المصادر الأصيلة، بعيداً عن تأثير المدارس الغربية الحديثة التي فسرت التاريخ الإسلامي تفسيراً مغايراً لمقاصده الشرعية والإنسانية.

وإعددنا في هذه الورقات ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التاريخ وانماطه.

المبحث الثاني: مدارس قراءة التاريخ الإسلامي.

المبحث الثالث: عرض لبعض مصادر التاريخ الإسلامي.

ونحن إذ نقدم عملنا هذا بين يدي القارئ الكريم، نعتذر لما قد يبدو عليه من قصور أو تقصير، فإن هذه سمة العمل عند بني آدم، سائلين الله تعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان كل من سعى في دراسته أو نشره أو قراءته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(١) تفسير المنار: ٢/ ٣٧٣.

المبحث الأول:
مفهوم التاريخ وأنماطه

تعريف التاريخ:

كلمة التاريخ في اللغة العربية تعني أشياء عدة، ولكن فيما يتعلق بالموضع الذي نحن بصدده فإنها غالباً ما تربط بين الإنسان والزمان، يقول السخاوي «التاريخ في اللغة هو الإعلام بالوقت، يقال أرَّخت الكتاب وورخته: أي بينت وقته»[(١)]، أما ابن خلدون فيقول: «هو في ظاهِرِه لا يزيد على أخبارٍ عن الأيَّام والدول والسَّوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظرٌ وتَحقيق، وتعليلٌ للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيَّات الوقائع وأسبابِها عميق»[(٢)].

والمعنى الراجح لكلمة التاريخ تعني: تقييد الحوادث بالعد أو بالوقت، وهذا المعنى لهذا اللفظ هو ما علمه المسلمون الأول من هذه الكلمة وأكدته تصانيفهم الأولى جعلوا له أصوله وضوابطه ومن المرجح أن لفظة التاريخ هي لفظة عربية جنوبية استعملها عرب شمال الجزيرة قبل الإسلام للدلالة على الأيام والسنين.

ويظهر في كتاب التاريخ تأكيد قوي على عنصر الوقت، وغالبا ما يراعى التسلسل الزمني في المصنفات الأولى بصورة عامة، وهذا يظهر في كتابة التاريخ على أساس تعاقب الخلفاء، او تتابع الحوادث، أو توالي الطبقات، ويصل حدوده الدقيقة في كتابة التاريخ على السنين، وكانت التواريخ والأسانيد العناصر الأساسية في الضبط، وفي كتب الأنساب والطبقات، وفي ذكر الأعمار وهذه تذكر لتعوض الشك في تواريخ الولادة فالتاريخ هو فعاليات البشر في أوقات معينة، وهذه هي النظرة الإسلامية إلى الوقت[(٣)].

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ص ٥٤.
(٢) التاريخ: ٦/١.
(٣) الدوري، نشأة علم التاريخ: ص ٦٨.

لكن يبقى التاريخ مجرد أيام مضت، يقوم المؤرخ عادة بصياغتها وفقاً لرؤياه الخاصة وميوله الفكرية، بل حتى في مسألة الانتقاء التي تخضع لها الرواية التاريخية ـ عند المسلمين ـ يدخل فيها مثل هذا النفس الذي نجده يتفاوت من مؤرخ لآخر، الأمر الذي يعطينا انطباعاً على أن التاريخ هو الذي يكتبه الرجال. لا الذي يفعله الرجال..!

ويرى أغلب المؤرخين أن التاريخ هو بحث ودراسة واستقصاء لأخبار الناس وحركتهم، والنظر في أحوالهم الماضية، أما موضوعه فهو الحياة الإنسانية في امتدادها الزمني على الأرض منذ بدء الخلق إلى اليوم وفي المستقبل المنظور واللامنظور وما يحكم هذه الحياة من عوامل وأسباب.

مقاصد المؤرخين:

لقد تعدد مقاصد المؤلفين في تدوين الأحداث التاريخية، وسواء كان ذلك بصورة حولية أو حسب الشخصيات والرموز، فيقول خليفة بن خياط (٢٤٠هـ) موضحاً مفهوم التاريخ عنده وعند أهل عصره «وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم وانقضاء عدد نسائهم ومحل ديونهم»[(١)].

والملاحظ على حركة كتابة التاريخ الإسلامي أن الغالب في تدوينه وتأليفه كأنها كانت على يد جهابذة العلماء من المحدثين والمفسرين؛ وقد يكون قرب نفوسهم من هذا العلم، وقد جعلت هذه السمة التاريخ الإسلامي تاريخاً منضبطاً غير خاضع لميل المؤلفين ورغباتهم في الغالب، كما أن توفر المادة العلمية الغزيرة بين أيديهم شجعهم على مثل هذه الكتابات، ولم يقتصر ذلك على تدوين هذا العلم في دواوين ومجلدات، بل أيضاً اشتغل به الرواة قبل عصر التدوين، فرواة الأخبار بمفهومها التاريخي غالباً هم رواة الأخبار الشرعية والسنن والنبوية، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر.

١. عروة بن الزبير (٩٣هـ).
٢. محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (١٢٤هـ).

---

(١) تاريخ خليفة: ص ٤٩.

٣. وهب بن منبه (١١٠هـ).

٤. موسى بن عقبة (١٤١هـ).

٥. محمد بن إسحاق (١٥١هـ).

وبقيت هذه السمة ـ اعني الرواية بالإسناد ـ ملاصقة لموضوع التاريخ حتى بعد عصر التدوين، بل وحتى في القرون التالية، إذ غالباً ما نجد المؤرخ هو نفسه المحدث والفقيه، ولم يكن هذا ليأتي ـ بطبيعة الحال من فراغ ـ لأن استعراض مقاصد المؤلفين في التدوين التاريخي توضح لنا وجهة نظرهم إلى الأحداث التاريخية وتعطينا تفسيراً موضوعياً للتوجهات الفكرية، بل في بعض الأحيان توضح لنا توجهاتهم في الانتقاء بين الروايات التاريخية، الأمر الذي مثل لنا قيمة علمية كبيرة

فهذا الطبري يذكر في مقدمة تاريخه المشهور الغرض من كتابه فيقول: «قصدنا في كتابنا هذا ذكر ما قدمنا الخبر عنه أنا ذاكروه فيه من ذكر الأزمنة وتاريخ الملوك والأنبياء والرسل.. وكان الغرض في كتابنا هذا ذكر ما قد بينا أنا ذاكروه من تاريخ الملوك الجبابرة العاصية ربها والمطيعة ربها منهم، وأزمان الرسل والأنبياء، وكنا قد أتينا على ذكر ما به تصح التأريخات وتعرف به الأوقات والساعات، وذلك الشمس والقمر اللذان بأحدهما تدرك معرفه ساعات الليل وأوقاته»[١].

والتاريخ عند الطبري رحمه الله له غرض سامي يتمثل بالاعتبار والعظة بما مرَّ ذكره من أخبار الأمم السابقة، ومن أخبار هذه الأمة أيضاً، وليس هو عبارة عن حكايات للسمر أو قصص ممكن أن يتسلى بها عند ضيق النفس، وهو في كل ذلك يتبع منهجاً إسلامياً مغايراً للمنهج المتبع عند الأمم السابقة، وهو المنهج الحولي وتدوين التاريخ على حسب السنوات، والنظرة إلى الوقت باعتباره المنظم لحركة التاريخ وليس العكس كما يمكن أن يتصور البعض، ويحاول جرنا إلى جدلية عقيمة.

(١) تاريخ الطبري: ٧٩.

ولابد أن نوضح في هذا المقام أمراً مهماً عند استقراء المنهج الذي سار عليه المسلمون في التدوين التاريخي، وذلك يبدو جلياً في الإطار التاريخي لمبدء التاريخ ومنتهاه، لأن التاريخ عند المؤرخ المسلم هو تاريخ علاقة العباد مع رب العباد، وليس فقط علاقة العباد فيما بينهم، لذلك نجد أن التواريخ عند هؤلاء المؤرخين عادة ما تبدأ بذكر الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ولعل المعيار الموضوعي الوحيد، الذي يساعد المؤرخون على فرز التاريخ الحق من الزائف، إنما هو مدى سعة أفقهم في مضمار الثقافة التاريخية، التي من شأنها ـ ككل جهد ثقافي وباعتبارها حصيلة للثقافة الإنسانية بمجموعها ـ أن تُنمّي لديهم «الحكمة»، التي يولّدها عمق الاختبار وسعته، فضلاً عن أنها تلحّ في التساؤل حتى تصل إلى الأعماق والجذور، فإذا انتقلنا من مجال الفكر إلى العمل، وجدنا أن العمل التاريخي المبدع ـــ كما يتطلب صحة الإحساس بالحاضر والتطلع إلى المستقبل والإقدام عليه ـــ فإنه لا يمكن أن يكون مبتوت الصلة بالماضي، ذلك أن الإنسان الحيّ الفاعل صانع التاريخ ليس «مستقبلياً» مطلقاً سابحاً في الرؤى والأحلام، ولا «حاضرياً» مطلقاً غارقاً كل الغرق فيما حوله من إشكاليات، ولا «تاريخياً» مطلقاً يحنّ إلى الماضي ويبغي أن يُعيده كما كان، بل هو ذلك الإنسان الداخل في صلب الحضارة المسهم فيها المتشوق إلى من يأتي من بعده ويتخطاه في مجالات الصنع والإسهام الحضاري[١].

ولم يكن الطبري وحده هو صاحب هذا التوجه، وإنما يمكن أن نعده نمطاً سائداً في تلك المرحلة، حتى عند أهل الأدب واللغة، يقول المسعودي في هذا الخصوص: «وكان ما دعاني إلى تأليف كتابي هذا في التاريخ وأخبار العالم، ما مضى من أكناف الزمان من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم مساكنها محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء، وقفاها الحكماء، أن يبقى للعالم ذكراً محموداً وعلماً منظوماً عتيداً، فإنا وجدنا مصنفي كتب ذلك مُجيداً

(١) د. محمد فتي عثمان، المدخل إلى التاريخ الإسلامي: ص ٤٨.

ومقصراً ومسهباً ومختصراً، ووجدنا الأخبار زائدة مع الأيام، حادثة حدوث الأزمان، وربما غاب البارع منها على فطن الذكي»[١].

والمسعودي في معرض الكشف عن غرضه من تأليف كتابه «مروج الذهب» لا يخرج عن الإطار العام الذي سار عليه من سبقه، ويضيف لها مبدأ «القدوة» في التناول التاريخي، ذلك أن وظيفة التاريخ لم تكن مجرد ذكر الأحداث، أو تخليد من ذكر هذا الحدث.!، وإنما لها معانٍ أخرى تتجاوزها إلى احتذاء الفضائل المذكورة، والسير على خطى أولئك الأفاضل والتشبه بأخلاقهم وسيرهم، وربما يكون هذا هو السبب الغالب عند المؤرخين المسلمين، خاصة في فترة الازدهار العلمي والفكري التي شهدتها القرون الأولى من تاريخ هذه الأمة

ولا تخرج مقاصد المؤلفين السابقين للتاريخ عن الأطر السابقة، ولكن هذا لا يلغي الخصوصية التي نجدها تختلف من مؤرخٍ لآخر، حسب اختلاف البيئة والزمان والمكان، ويقول ابن طاهر المقدسي: «وجمعت ما وجدت في ذكر وجمعت ما وجدت في ذكر مبتدأ الخلق ومنتهاه ثم ما يتبعه من قصص الأنبياء عليهم السلام وأخبار الأمم والأجيال وتواريخ الملوك ذوى الاخطار من العرب والعجم وما روى من أمر الخلفاء من لدن قيام الساعة الى زماننا هذا وهو سنة ثلاثمائة وخمس وخمسين (٣٥٥هـ) من هجرة نبيّنا محمد، وما حكى أنه واقع بعد من الكوائن والفتن والعجائب بين يدي الساعة على نحو ما بيّن وفصّل في الكتب المتقدّمة والاخبار المورّخة من الخلق والخلائق وأديان أصناف الأمم ومعاملتهم ورسومهم وذكر العمران من الأرض وكيفية صفات الأقاليم والممالك ثم ما جرى في الإسلام من المغازي والفتوح وغير ذلك ممّا يمرّ بك في تفصيل الفصول وانّما نبهنا على ما أردنا قول الحكماء أوّل العمل آخر التفكر»[٢].

ويدخل هنا بعد مكاني آخر سواء عند ابن طاهر المقدسي، أو عند من أتى

---

(١) مروج الذهب: ١/١٢.

(٢) البدء والتاريخ: ١/٦-٧.

من بعده خاصة البيروني، يتمثل في تعدي البيئة الإسلامية إلى البيئة غير الإسلامية، فيتناول بالتدوين أخبار الأمم المجاورة، وإن كان الغالب على مثل هذا الاستعراض هو الأسلوب القصصي، وفي بعض الأحيان الخيالي الخالي من القيم العلمية.

ويقول البيروني (ت٤٤٠هـ): «والتاريخ مدة معلومة تُعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب، أو زلزلة وخسف مبيد، أو وباء مهلك أو قحط مستأصل، أو انتقال دولة أو تبدل ملة أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية والعلامات الأرضية التي لا تحدث إلا في دهور متطاولة وأزمنة متراخية تعرف الأوقات المحددة»(١).

ويذكر ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) للتاريخ فائدتين(٢): «واعلم أَن فِي ذكر السير والتواريخ فوائد كثيرة، أهمها فائدتان، أحدهما: أَنَّهُ إِن ذكرت سيرة حازم ووصفت عاقبة حاله علمت حسن التدبير واستعمال الحزم، وإن ذكرت سيرته مفرط ووصفت عاقبته خويت من التفريط فيتأدب المسلط، ويعتبر المتذكر، ويتضمن ذَلِكَ شحذ صوارم العقول، ويكون روضة للمتنزه فِي المنقول

وَالثَّانِيَة: أَن يطلع بِذَلِكَ عَلَى عجائب الأمور وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، والنفس تجد راحة بسماع الأخبار

وَقَالَ أَبُو عَمْرو بْن العلاء لرجل من بَكْر بْن وائل قَدْ كبر حَتَّى ذهب منه لذة المأكل والمشرب والنكاح: أتحب أَن تموت؟ قَالَ: لا، قيل: فَمَا بقي من لذتك فِي الدنيا، قَالَ: أسمع بالعجائب.

وقال أبو القاسم محمد بن يوسف البلخي (٥٥٦هـ) في معرض تقديمه لكتابه تاريخ بلخ وأهمية علم التاريخ: «فيه إحياء ذكر الأولين والآخرين من علمائها والطارئين عليها، فإن ذكرها حياة جديدة ومن احياها فكأنما أحيا

---

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية: ص ١٣.
(٢) المنتظم: ١/ ٩.

الناس جميعاً، وتصورهم في القلوب ومعرفة أحوالهم وزهدهم وورعهم وديانتهم وانصرافهم عن الدنيا واحتقارهم لها وصبرهم على شدائد الطاعات والمصائب في الله، فيتخلق الناظر بأخلاقهم، ويتعطر السامع باحوالهم فالطبع منقاد، والإنسان معتاد، والأذن تعشق قبل العين أحياناً»[١].

ويقرَّع ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) صاحب «الكامل في التاريخ»[٢] من ذم التاريخ ويعرض فوائده الدنيوية والأخروية.

ولقد رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة والدراية ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية يحتقر التواريخ ويزديها، ويعرض عنها ويلغيها ظنا منه أن غاية، فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، وأصبح مخشلبا جوهره، ومن رزقه الله طبعا سليما وهداه صراطا مستقيما علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة، وها نحن نذكر شيئا مما ظهر لنا فيها ونكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها.

فأما فوائدها الدنيوية:

١. أن الإنسان لا يخفى أنه يحب البقاء ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء.. فإذا طالعها فكأنه عاصرهم، وإذا علمها فكأنه حاضرهم.

٢. ومنها: أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورآها مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرويها خلف عن سلف، ونظروا إل ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الأموال وفساد الأحوال استقبحوها وأعرضوا عنها واطرحوها وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم، وأن بلادهم وممالكهم عمرت وأموالهم درت استحسنوا ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك

---

(١) الإعلان بالتوبيخ: ص ٤٢.

(٢) الكامل: ١/ ١٠-١١.

واستصانوا نفائس المدن وعظيم الممالك ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخرا.

٣. ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه عواقبها، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره فيزداد بذلك عقلا ويصبح لأن يقتدى به أهلا.

٤. ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل من ذكر شيء من معارفها ونقل طريفة من طرائفها فترى الأسماع مصغية إليه والوجوه مقبلة عليه والقلوب متأملة ما يورده ويصدره مستحسنة ما يذكره.

أما الفوائد الأخروية:

١. فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها ورأى تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها، وأنها سلبت نفوسه وذخائرهم وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم فلم تبق على جليل ولا حقير ولم يسلم من نكدها غني ولا فقير، زهد فيها وأعرض عنها وأقبل على التزود للآخرة منها، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص وسلم أهلها من هذه النقائص، ولعل قائلا يقول: ما نرى ناظرا فيها زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا، فيا ليت شعري كم رأى هذا القائل قارئا للقرآن العزيز وهو سيد المواعظ وأفصح الكلام يطلب به اليسير من هذا الحطام فإن القلوب مولعة بحب العاجل.

٢. ومنها التخلق بالصبر والتأسي وهما من محاسن الأخلاق فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم ولا ملك معظم بل ولا أحد من البشر علم أنه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم، ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [قٓ: ٣٧]، فإن ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الات والأسمار فقد تمسك من أقوال الزيغ بمحكم سببها حيث قالوا: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا

٣. ويقول اليغموري (ت ٦٧٣هـ) ـ فيما نقله عنه السخاوي ـ: «وأحد رؤساء العارف: علم التاريخ ؛ لأنه باب يدل على أعلام أهل كل زمن، ويبين

عما حدث فيه من حدث، وتجدد من خبر، وعرض من سبب، مستفيداً صاحبه المعرفة بأوقات الأكوان وأحوال أيام الأعيان»[١].

ويقول ابن فهد (ت ٨٨٥هـ): «علم التاريخ لا شك في جلالة قدره وعظم موقعه ينتفع به للاطلاع على حوادث الزمان، وسير الناس وما أبقى الدهر من أخبارهم بعد أن أبادهم، مع أنه عبرة لمن اعتبر، وتنبيه لمن افتكر، واختبار حال من مضى وغبر، وإعلام أن ساكني الدنيا على سفر، وفي ضبطه بالسنين أمور مهمة وفوائد جمة لحظها الفاروق والصحابة عند وضعه التاريخ»[٢].

ويقول ابن خلدون في «مقدمة تاريخه»: «فإنّ فنّ التّاريخ من الفنون الّتي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الرّكائب والرّحال، وتسمو إلى معرفته السّوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهّال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيّام والدّول، والسّوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، وتؤدّي لنا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال، واتّسع للدّول فيها النّطاق والمجال، وعمّروا الأرض حتّى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزّوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق»[٣].

وكان العلماء يعرفون فضل التاريخ والتوثيق، فمن طرائف ما يذكر في هذا الباب ما روي عن ابن البناء الحنبلي (ت٤٧١هـ): «ليت الخطيب البغدادي ذكرني في تاريخه ولو في الكذابين!»[٤].

ويذكر السخاوي عن بعضهم أنه قال: «ليتني أموت في حياة السخاوي حتى يترجمني»[٥].

(١) الإعلان بالتوبيخ: ص ٧٤.
(٢) إتحاف الورى بأخبار أم القرى: ١/ ٤.
(٣) التاريخ: ١/٦.
(٤) القفطي، إنباه الرواة: ١/ ٣١١.
(٥) الإعلان بالتوبيخ: ص ٣٣.

والسخاوي نفسه ألف لنا مؤلفاً في تقرير علم التاريخ وفضله، فقال: «فهو يذكر فيه أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم وسننهم، فهو مع أخبار العلماء ومذاهبهم والحكماء وكلامهم، والزهاد والنساك ومواعظهم، عظيم الغناء، طاهر المنفعة، فيما يصلح الإنسان به أمر معاده ودينه وسريرته في اعتقاداته، وسيرته في أمور الدين وما يصلح به أمر معاملاته ومعاشه الدنيوي»[١].

أنماط التاريخ:

لا يمكن أن نفهم التاريخ الإسلامي إلا إذا عرفنا أنماط الأخبار التاريخية التي وصلتنا، وقد شكلت أنواع الكتابات التاريخية الإسلامية تنوعاً كبيراً، اعترف به حتى المستشرقون، إذ عدوه أنجازاً حضارياً يستحق التقدير إذا ما تمت مقارنته بنتاج الأمم الأخرى، خاصة الأوربيين الذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه المسلمون إلا بعد قرون عديدة.

ويجب أن لا ننسى أن التنوع في الكتابة التاريخية الإسلامية يدل على الطفرة العلمية والفكرية التي وصلت إليها الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت، والتي سعى رجالاتها إلى تدوين ما وصل إليهم من أخبار وروايات وفقاً لأنماط معروفة ومشهورة، سنحاول في هذه العجالة استعراضها.

١. الأخبار:

اعتمد الرواة الأوائل للتاريخ الإسلامي على الرواية الشفوية، وكانت الأخبار الإسلامية ــ وإلى هذه الأخبار بالذات ــ ترجع بدايات التاريخ الإسلامي الأصيل، أي منذ أن سعى المسلمون صادقين، لتتبع أخبار حياة الرسول الكريم ﷺ وأعماله وأقواله، ولما لم يكن لدى المسلمين مدوّنات أكيدة حول هذا الأمر، عدا القرآن الكريم، وما كتب من رسائل واتفاقات، فإن الصحابة والتابعين، أخذوا على عاتقهم نقل أخبار حياة الرسول ﷺ، وأحاديثه، ومغازيه شفوياً إلى الأجيال الناشئة من المسلمين، وإلى المعتنقين الجدد للدين الإسلامي، وبذلك ظهر رواة الأحاديث، والمغازي.

(١) المصدر السابق: ص ٤٣.

وقد لعبت الرواية الشفوية دورًا هامًا في كتابة التراث الإسلامي عند المسلمين الذين كانوا رواد الفكر في ذلك العصر، وكان العرب في الجاهلية يعتمدون على الرواية الشفوية في حفظ الشعر العربي والمعلقات، وتاريخ العرب وأنسابهم، ويعود السبب في انتشار هذا النوع من الأخبار إلى:

١. صفاء الذهن وقوة القريحة التي تمتع بها العرب، وذلك لأنهم كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، والأمي يعتمد على ذاكرته فتنمو وتقوى لتسعفه حين الحاجة، كما أن بساطة عيشهم وبعدهم عن تعقيد الحضارة ومشاكلها جعلهم ذوي أذهان نقية، لذلك عرِفوا بالحفظ النادر والذكاء العجيب، فهاهم يحفظون الأنساب مهما طالت وامتدت عبر الأجيال، وقد اشتهر بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكذلك كانوا يحفظون بالمشافهة القصائد الطويلة كالمعلقات وغيرها، هذا بالإضافة إلى أن العرب كانت تحفظ وقائعهم وتاريخهم.

٢. قوة الدافع الديني، وذلك مما جعل الصحابة الكرام يحفظون القرآن الكريم لأنهم أيقنوا بأنه لا سعادة لهم في الدنيا والآخرة ولا سبيل للمجد والشرف والسيادة بين الأمم إلا بهذا القرآن العظيم، هذا بالإضافة إلى حفظهم للحديث الشريف.

٣. حب الصحابة لله والرسول ﷺ، حبًا ملك مشاعرهم، واحتل مكان العقيدة في قلوبهم، ذلك جعلهم يسيرون على منهج الرسول الكريم فحفظوا كتاب الله وما ورد عنه، وهم الذين باعوا أنفسهم لله وللرسول رخيصة، وهم الذين باعوا الدنيا بما فيها يبتغون فضلًا من الله وهم الذين حملوا هذا الدين للعالمين.

٤. كانت هذه الروايات الشفوية تشكل دافعاً معنوياً كبيراً للمجاهدين في القرن الأول الهجري، ولذا شكلت مادة أساسية لرفع القوة المعنوية للفاتحين الذين خرجوا لرفع راية الإسلام وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وهناك إجْماع لدى الدارسين على أنَّ جلَّ المحدثين والمؤرِّخين والإخباريِّين والأُدَباء والشُّعراء الأوائل، قد استفادوا من الرواية الشفهيَّة؛

فالبلاذري (ت ٢٩٨هـ)، والطبري (ت٣١٠هـ)، والمسعودي (ت٣٤٦هـ)، يأتون على رأس المؤرخين المسلمين الأوائل الذين اعتمدوا بشكلٍ كبير على الروايات الشفهيَّة عند تأليفهم كتبهم، ويكاد الشعر العربي الجاهلي برمته أن يكون شعراً شفوياً.

ويرجع الفضل إلى العلماء المسلمين الذين قنَّنوا قواعد علمية للاستفادة من الروايات الشفهية، فأصبحت تلك القواعد فيما بعد علومًا مستقلة مثل: علم الإسناد، وعلم الرجال، وعلم الجرح والتعديل، وقد نشأت هذه العلم بالأساس لخدمة السنة النبوية وحفظها من وضع الكذابين، لكنها في واقع الحال شكلت أيضاً أساساً مهماً للنقل التاريخي ونقده عند المؤرخين المسلمين أيضاً.

٢. المغازي والسير:

علم المغازي والسير هو عَلَم على فن من فنون علم التاريخ من حيث أنه يؤرخ لحياة النبي ﷺ ابتداء من إرهاصات بعثته، وأحوال العرب الذين بعث فيهم، وأحداث مولده، وأحوال نشأته، وقصة بعثته، وأخبار دعوته في مكة، وهجرته إلى المدينة، وإقامته للدولة فيها، وغزواته وسيرته، وسياسته مع المسلمين والمحاربين والمعاهدين إلى وفاته.

والسير جمع سيرة وهي الحالة من السير، كالجلسة والركبة، للجلوس والركوب، ثم نقلت إلى معنى الطريق والمذهب، ثم غلبت في لسان الشرع على أمور المغازي، لأن أول أمرنا السير إلى العدو، وأن المراد بها سير الإمام ومعاملاته مع الغزاة والأنصار، ومع العداة والكفار، وإنما سمي بها هذا الكتاب، لأنه بين فيه سير المسلمين في المعاملة مع الكافرين من أهل الحرب، ومع أهل العهد منهم من أهل الذمة والمستأمنين، ومع المرتدين بالإنكار بعد الإقرار، ومع أهل البغي الذين حالهم دون حال المشركين(١).

ويظهر بجلاء أن المعنى اللغوي صار جزءا من المعنى الاصطلاحي الذي

---

(١) القونوي، أنيس الفقهاء: ص ١٨٢.

صار يشتمل على أخبار المغازي النبوية وطريقته ﷺ وسننه في تعامله مع أعدائه بالإضافة إلى أخبار مواالده ونشأته ونسبه ودعوته ﷺ في مكة وهجرته ووفاته.

ولا يخفى على ذي بصيرة أن المقصود بـ«السيرة النبوية» هو ما يتصل بسيدنا المصطفى ﷺ، من حيث الحديث عن نسبه الشريف، ومولده ونشأته، وبعثته، وصفاته، وتصرف أحواله إلى أن لقي ربه راضياً مرضياً بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وترك أمته على مثل المحجة البيضاء، فهذا هو الأصل في مصطلح السيرة النبوية لكنه قد استعمل أيضاً مضافاً إليه حديث المغازي والغزوات التي خاضها الرسول ﷺ، لإعلاء كلمة الله في الأرض، فصار هذان المصطلحان يتعاقبان على موضوع واحد، فكتاب ابن إسحاق يقال له: السيرة، ويقال له: المغازي، وقد جمع بعض المؤلفين المصطلحين في العنوان الذي اختاره لكتابه، كما ترى في كتب ابن عبد البر، وابن الجوزي، وابن سيد الناس، على أن هناك بعض الكتب التي تنصرف خالصة إلى السيرة النبوية بمعناها الأصلي الذي ذكرته، وذلك ما عرف بكتب دلائل النبوة، والشمائل، والخصائص.

وعلم المغازي يتنازعه علم التاريخ من حيث أنه يؤرخ لحياة النبي ﷺ، وعلم الحديث من حيث أن إثبات أخباره يكون بالأحاديث والآثار المسندة والمرسلة وهي مدار علم الحديث، كما إن كل ما صدر عنه ﷺ هو من السنة والحديث النبوي كمصدر من مصادر التشريع، وقد جعله الإمام الحاكم فرعا من فروع علم الحديث فقال: النوع الثامن والأربعون: معرفة مغازي رسول الله ﷺ وسراياه وبعوثه وكتبه: هذه النوع من هذه العلوم معرفة مغازي رسول الله ﷺ وسراياه وبعوثه، وكتبه إلى ملوك المشركين، وكيف قسم رسول الله ﷺ الغنائم، وكيف أقام الحدود في الغلول، وهذه أنواع من العلوم التي لا يستغني عنها عالم(١).

(١) معرفة علوم الحديث: ٢١٨.

قال القنوجي: علم المغازي والسير ـ أي مغازي رسول الله ـ ﷺ وهو من فروع علم التواريخ، وموضوعه ومنفعته وغايته وغرضه لا يخفى على كل ذي لب، ولكن لما كان ثبوتها بالأحاديث والآثار جعلناها من فروع علم الحديث، وفي هذا العلم مصنفات كثيرة أجلها وأفضلها تصنيف عبد الملك بن هشام ومغازي ابن إسحاق وغير ذلك[١].

وهو أوضح دليل على مدى ارتباط علم المغازي بعلم التفسير ونزول القرآن، إذ عامة أخبار المغازي ورد ذكرها في القرآن، وهو المصدر الأول لها، فاحتاج إلى المغازي لمعرفة أسباب نزولها، ومعرفة تفصيل ما أجمل القرآن ذكره من أخبارها.

ويمكن بيان أهمية علم المغازي والسير في كونه:

١ ـ التطبيق العملي للإسلام كما مارسه النبي.

٢ـ فيه بيان لما جاء في القرآن من أحكام كثيرة بشأن معاملة من استجابوا للدعوة وهاجروا وما لهم من حقوق ومن لم يهاجروا منهم وكذا معاملة من لم يستجيبوا للإسلام ممن صالحوا وعاهدوا أو حاربوا وقاتلوا وأحكام الحرب والصلح والسلم.. الخ.

٣ ـ البيان لمعاني كثير من آيات القرآن التي لا يمكن فهما إلا بعد الوقوف على تفاصيل أخبارها في المغازي والسير.

وبدأت منذ القرن الأول الهجري محاولات جدية لكي تأخذ الأخبار منحى مستقلاً عن السنة النبوية، ويبدو أن هذه المحاولات ظهرت بصورة مبكرة على يد عدد من أبناء الصحابة، وأصبحت سيرة النبي ﷺ هي الأساس الذي بنيت عليه الأخبار ــ أو التاريخ الإسلامي ـ بصورة أساسية، وظهرت بوادر ذلك على يد أبان بن عثمان ت في حدود (١٠٥هـ) فهو وإن كان محدثاً مشهوراً إلا ان عنايته بالمغازي جعلته يقف على رأس قائمة المهتمين بذكر أخبار رسول الله.

---

(١) أبجد العلوم: ٢/ ٥١٢.

ويبدو أن عروة بن الزبير (ت ٩٤) كان له اهتمام خاص بالمغازي أيضاً، ويذكر بعض المتأخرين كتاباً له في ذلك، وهو أمر مستبعد بتقديري لأن التدوين لم يكن قد بدأ في عصره بالمفهوم الذي سنراه لاحقاً على يد الزهري، ولكن الذي يبدو لنا أن الأخبار التي رويت عنه على شكل مغازي مشهورة جعلت البعض يظن أن له كتاباً في ذلك، وربما يكون ذلك شبيه إلى حد كبير برواية كعب الأحبار أخبار أهل الكتاب، وتخصصه بذلك في التاريخ الإسلامي.

وقال الطناحي: في النصف الثاني من القرن الأول الهجري بدأ بعض التابعين في تدوين أخبار السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ، ويجمع مؤرخو السير على أن أول من كتب في ذلك هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، المتوفى سنة (٩٣هـ)، وقد عاصره وتلاه نفر من التابعين الذين عرفوا بالعناية بالسيرة، وجمع أخبارها، منهم أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة (١٠٥هـ)، ووهب بن منبه المتوفى سنة (١١٠هـ)، وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة (١٢٠هـ)، ومحمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري المتوفى سنة (١٢٤هـ)، وعبد الله بن أبي بكر ابن محمد بن حزم المتوفى سنة (١٣٥هـ)[(١)].

٣. الحوليات:

ويسميه بعض الباحثين بالتاريخ العام، وإن كان في هذه التسمية شيء من التعميم لأن الغالب في الكتب التي ألفت في هذا الباب تناولت الشأن السياسي والعسكري، ولا نجد ذكر للنواحي الاقتصادية أو الاجتماعية أو غيرها، وعلى الباحث فيها أن يتسم بالدقة الشديدة لكي يتلمس هذه النواحي التي مرت.

والتاريخ الحولي هو ترتيب التاريخ وفقاً للسنوات الهجرية، وذكر الأحداث فيها سنة بعد سنة، بحيث تجمع مختلف الحوادث في كل سنة تحت

(١) القونوي، مصدر سابق.

عناوين متعددة، كأن يقال: «في سنة كذا» أو «ثم جاءت سنة كذا»، أما الصلة بين مختلف الحوادث المدونة والتي تجري في سنة بعينها فتقوم بإضافة جملة وفيها أي وفي وفي السنة نفسها.

ورغم أن المؤلف هو الذي كان يقرر مدى التفاصيل في وصف الحوادث، فإنه لم يكن يستطيع أن يعطينا صورة واضحة متتابعة لأخبار حادثة طويلة تمتد لسنوات عدة ؛ لأنه كان محكوماً بذكر تفاصيل تخص سنة بعنيها، أما بقية أجزاء الحادثة فإنها كانت تأتي في سياق أحداث أخرى تعود للسنة التي تليها، وبالتالي فالحادثة الواحدة تأتي مقطعة الأوصال، وهذا ما كان يُضعف شكلها ويُبعدها عن الوضوح والفهم، ورغم أن ابن الأثير سار في تاريخه على النهج الحولي إلا أنه لم يخفِ تذمره من بعض سلبيات هذا النهج، وحاول أن يبتكر منهجاً وسطاً فيقول: «ورأيتهم أيضا يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر، فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت فأتت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها برقاب بعض، وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها فأما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شيء ترجمة، فإنني أفردت لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة فأقول: ذكر عدة حوادث وإذا ذكرت بعض من نبغ وملك قطرا من البلاد ولم تطل أيامه فإني أذكر جميع حاله من أوله إلى آخره عند ابتداء أمره لأن إذا تفرق خبره لم يعرف للجهل به[(١)].

أما أول من كتب في هذا النوع من التاريخ، في أواخر القرن الثاني للهجرة فهو: الهيثم بن عدي (ت٢٠٧هـ) وذلك من خلال كتابه المفقود «التاريخ على السنين»، ويذكر الذهبي وغيره أن محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ) له كتاب في ذلك مؤلف على السنوات، وجاء بعده خليفة بن خياط (٢٤٠هـ)،

(١) الكامل: ١/ ٧.

وله كتاب حولي صغير نشره د. أكرم ضياء العمري.

ثم توالت المؤلفات وفقاً لهذا النظام ويعد تاريخ الرسل والملوك لمحمد ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) أول أضخم كتاب يصل الينا من المؤرخين المسلمين في التاريخ العام، غير أن هناك الكثير ممن سبقوه في اتباع هذا المنهج، ثم تطورت هذه الطريقة على يد ابن الجوزي (ت٥٧هـ) وابن الأثير (ت٦٣٠هـ) أما فائدة هذا النوع من المؤلفات لباحث التاريخ فتتأتى من كونها تضم مجموعة كبيرة من الوثائق مثل الرسائل والمعاهدات والعهود بين الدول والحكام ولتميزها بغنى المادة التاريخية عن الأحداث، ولكن يجب الإشارة هنا ان ما صنفه المؤرخون المتأخرون في هذا النوع لا يعتمد كمصدر أولي عن الأحداث التي وقعت في القرون الإسلامية الأولى والمعول هنا بشكل أساس على ما كتبه المؤرخ من أخبار عن أحداث عصره.

٤. كتب التراجم:

التراجم جمع ترجمة وهي سيرة مختصرة لشخص معين وهذه السيرة قد تطول وقد تقصر أو تكون بين هذا وذاك، حسب ما يراه مؤلف الكتاب وحسب أهمية أصحاب التراجم عنده، وهذه السير تجمع في كتاب واحد قد يقع في عدة أجزاء فيطلق عليها اصطلاحاً تراجم ولكن ذلك الكتاب قد يكون في الطبقات أو الوفيات أو حسب القرون أو معاجم شيوخ أو في الأنساب وهذه وغيرها هي من أنواع كتب التراجم، ويعد هذا القسم من مصادر التاريخ الإسلامي ذا أهمية بالغة عند الباحثين وذلك لان معظم كتابات المؤرخين العرب المسلمين كانت على شكل تراجم فضلاً عما تميزت به هذه الكتب بالثقة والدقة والغنى بالمعلومات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، وتأتي مصداقية هذه الكتب من تأثرها بالشروط التي وضعها علماء الحديث ولا سيما اتباع مؤلفيها لمبدأ الجرح والتعديل في أغلب الأحيان ومنها المؤلفات لتي تناولت تراجم العلماء والفقهاء والمحدثين والمفسرين وسنذكر أدناه أهم أنواع كتب التراجم:

أ. كتب تاريخ المدن:

ومن أشهر هذه الكتب تاريخ واسط لاسلم بن سهل المعروف ببحشل (ت٢٩٢هـ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) وتاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١هـ)، وهذه المؤلفات هي من أهم كتب التراجم، غير انها تحوي أيضا معلومات مهمة عن المدينة نفسها فتاريخ بغداد مثلاً يضم معلومات نفيسة لا غنى للدراسات الحديثة عنها، منها: معلومات حول خطط بغداد والحياة الثقافية والتعليمية فيها.

والصفة الغالبة على تراجم هذا النوع من المؤلفات هو ان معظم شخصيات التراجم من رجال الحديث فمن مجموع (٧٨٣١) ترجمة ضمها كتاب تاريخ بغداد هناك خمسة آلاف ترجمة لرجال الحديث، وعلى الرغم من ان هذا النوع من المؤلفات يعد من كتب الرجال الا ان الباحث يجد فيها عدداً من تراجم النساء قد وردت (٣٢) ترجمة لشخصيات نسائية في تاريخ بغداد مثلاً وهكذا فان كتب التراجم تضم بين دفتيها أيضا تراجم من هذا النوع، وكتب التراجم المحلية غالباً ما تتبع الترتيب الهجائي في تنظيم تراجم الكتاب، وهي تزود الباحث بمادة أولية عن الشخصيات التي عاصرها المؤلف زماناً ومكانا، وعلى هذا الأساس تعد هذه المعلومات مصادر أولية من جهة، ومن جهة أخرى تزداد قيمة الكتابة عن هذه الشخصيات كلما قرب العهد بالمؤلف، ولو نظرنا في نسبة ما تقدمه من معلومات لوجدنا ان أغلبها نقلت عن مصادر أخرى فثلاثة أرباع المادة التي حواها تاريخ بغداد كانت منقولة من مصادر وليست مشاهدات لمؤلفه.

ب. كتب الطبقات:

ظهرت كتب الطبقات منذ بداية القرن الثالث الهجري على يد بعض كبار المؤلفين مثل الهيثم بن عدي (ت٢٠٧هـ) وابن سعد (ت٢٣٠هـ) وخليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ)، ومصطلح الطبقة يعني مجموعة من الأشخاص ينتمون إلى فترة زمنية واحدة ويشتركون في صفة معينة، وتخصصت هذه الكتب في أول

أمرها لرجال الحديث النبوي الشريف، ولكنها تطورت فيما بعد وتعددت أنواعها فظهرت كتب في طبقات الأطباء والأدباء والفقهاء والشعراء الخ.

وهذه الكتب ــ وان كانت تسمى كتب الطبقات ــ فإن التصميم الداخلي لها يختلف من كتاب إلى اخر، فهناك من رتب تراجم كتابه حسب المدن: كمحمد بن سعد في طبقاته الكبرى التي تعد أقدم كتاب كبير يصلنا في هذا النوع من الكتب، أما خليفة بن خياط فقد رتب طبقاته حسب أنسابهم آخذاً بنظر الاعتبار الترتيب حسب طبقاتهم داخل النسب الواحد وتتميز كتب الطبقات ذات الصفة الدينية بالثقة والمصداقية لاتباع مؤلفيها قاعدة الجرح والتعديل، مما يعطي الباحث الفرصة للاعتماد عليها، اما كيفية معرفة الكتاب الذي يتوقع الباحث ان يحوي نصوصاً تفيده فذلك يعرف من خلال معرفة نسب الشخصية أو موطنها أو مهنتها أو مذهبها أو العلم الذي اشتهرت به، فإذا كان طبيباً مثلاً وتوفي قبل وفاة مؤلف كتاب طبقات الأطباء يرجح ان يكتب عنه، وإذا كان محدثاً نذهب اولاً إلى طبقات المحدثين غير ان المحدث يشتهر في الغالب بعلوم القران والفقه، لذا يرجح ان يجد الباحث ترجمة له في طبقات المفسرين للداودي (ت١٢٥٠هـ) أو احدى كتب الفقهاء التي ترجمت لفقهاء مذهبه شريطة ان يتأكد الباحث اولاً من ان سنة وفاة صاحب المصدر تأتي بعد تاريخ وفاة المراد ترجمته.

إن التخصص لم يكن شائعاً بين علماء العصور الإسلامية، بل يمكن القول: إن معظمهم اشتهروا بكونهم موسوعيين إذ لم يكتفوا بالتأليف في علم واحد، فقد ترى بعضهم يؤلف في علوم القران والحديث والفقه واللغة والأدب والتاريخ الخ، لذا من المتوقع ان يجد الباحث أكثر من ترجمة في أكثر من نوع من كتب الطبقات للشخصية موضوعة البحث وفضلا عن ذلك فان كتب الطبقات تضم معلومات مهمة عن الجوانب الاجتماعية والثقافية وبعض الإشارات المبثوثة بين السطور عن خطط المدن.

جـ. كتب الوفيات:

وهذه تشكل نوعاً آخر من كتب التراجم نظمت فيه مادة الكتاب على

أساس سنوات وفيات أصحاب التراجم، وبذلك تكون طريقة الوصول للترجمة المطلوبة على أساس تاريخ الوفاة ومن بين هذه المؤلفات المطبوعة كتاب الوفيات لابن رافع السلامي (ت٧٧٤هـ) ولكن يجب ان نشير إلى ان بعض الكتب التي اتخذت عناوين مشابهة لم تعتمد هذا النظام، بل رتبت مادتها على أساس آخر مثل وفيات الأعيان لابن خلكان (ت٦٨١هـ) وغيره.

د. كتب التراجم العامة:

وخير من يمثل هذا النوع من المصنفات كتاب الذهبي (ت ٧٤٨هـ) المشهور «سير أعلام النبلاء» الذي قسمه على شكل طبقات، وترجم فيه لمعظم أعلام الإسلام حتى سنة (٧٠٠هـ)، كذلك كتاب ابن خلكان المذكور آنفاً وعنوانه الكامل وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ويعد من أفضل كتب التراجم، لما حواه من مادة تفصيلية ومهمة رتبه على أساس حروف المعجم، ولم يقصره على فئة واحدة من الأشخاص، بل ترجم لجميع الأعيان المشاهير ومن مختلف الاتجاهات والاختصاصات، وفيه تراجم للعديد من النساء، والكتاب يعد في غاية الأهمية للباحث في سير الأشخاص المعاصرين لمؤلفه، وقد أكمل ابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ) نواقص هذا الكتاب وما فات مؤلفه بكتابه فوات الوفيات.

هـ. معاجم الشيوخ:

اهتم بعض العلماء بجمع أسماء شيوخهم الذين تتلمذوا عليهم في كتاب، وسميت بعناوين عدة مثل معجم الشيوخ، فهرست الشيوخ، برنامج ومشيخة.. الخ، وفي الأعم الأغلب رتبت تراجم هذه الكتب على أساس حروف أسماء أصحابها أو على أساس بلدانهم والنظام الأول هو الأكثر شيوعاً، ولكن شمس الدين السخاوي قلل من أهمية هذه الكتب لان جل من ألف فيها لم يترجم للشيوخ بالتفصيل، بل اكتفى بذكر الأسماء، واورد قائمة طويلة بأسماء من ألف في هذا الباب، ولا شك في ان المادة التي توفرها بعض الكتب التي فصلت في ذكر أخبار شيوخ مؤلفيها، تعد ذات أهمية خاصة، لدقة معرفة المؤلفين بأحوال شيوخهم الذين جالسوهم وخبروهم عن قرب فهم أجدر على

إبداء الرأي وإصدار الحكم، وقد تحوي هذه الكتب تراجم يعدها أصحاب كتب التراجم العامة من غير المهتمين فلا يذكرونهم فيقتصر ذكرهم على معاجم الشيوخ، وتفيد هذه المصادر التي تعد مصادر أولية في دراسة الحياة العلمية في العصر الذي تنتمي إليه من خلال أسماء العلماء وذكر أسماء الكتب المدرَسة واشارات عن المؤسسات التعليمية كالمدارس وطبيعة العلاقات بين العلماء والتلاميذ وطرق التدريس عند الشيوخ، وتعطي هذه المؤلفات معلومات عن مدى النشاط العلمي في المدن الإسلامية، لان التلاميذ آنذاك كانوا لا يكتفون بالدراسة على شيوخ بلدهم، بل يرحلون إلى مدن عديدة، من اجل طلب العلم على أيدي مشاهير العلماء ومن الكتب التي وردت الينا في هذا الباب برنامج الوادي اشي، وهو معجم شيوخ وضعه محمد بن جابر الوادي اشي التونسي (ت٧٤٩هـ).

و. كتب التراجم المرتبة على أساس القرون:

نظم بعض مؤلفي كتب التراجم مادة الكتاب على أساس القرن الذي توفي فيه أصحاب تراجمه، ومثال ذلك ما فعله ابن حجر العسقلاني المصري (ت٨٥٢هـ) وشمس الدين السخاوي، فقد ألف الأول كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة وصنف الثاني كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع وتكمن أهمية هذا الكتاب في توفير المادة للباحثين عن تاريخ تلك القرون والمعلومات المقدمة في هذا الصنف ولا سيما الكتابين المذكورين تميزت بالدقة والشمولية والتفصيل، وتعد هذه الكتب من المصادر الأولية لقرب مؤلفيها زماناً ومكاناً في أغلب الأحيان، ككتاب السخاوي المذكور الذي خصصه لتراجم أشخاص عاصرهم أو كان قريباً من عهدهم، وفي كثير من الأحيان شاهدهم واحتك بهم، ويعد كتابه من اكثر كتب التراجم ذات الطابع النقدي المميز، ان سرعة وصول الباحث إلى الترجمة المطلوبة تكمن في معرفة سنة وفاة الشخص المطلوبة حوله المعلومات، فإذا كانت ضمن القرن المقصود وجد ضالته.

٥. كتب الأنساب:

إن علم النسب من العلوم المهمة التي خص الله بها العرب، وليس الاهتمام بهذا العلم وليد عصر جديد او مختص ببلاد معينة فهو منذ خلق الله الأرض وما عليها، لكن اختص العرب بمعرفة الأنساب كما اختص كل طائفة بعلم خاص بهم، حيث اختص الروم بعلوم الطب، ولأهل اليونان الحكمة والمنطق ولأهل الهند التنجيم والحساب، ولأهل الصين الصنائع، وللعرب الأمثال والنسب، لذا فان هذا العلم خاص بهم وقد حفظ العرب أنسابهم فكل واحد يحفظ نسبه إلى عدنان او قحطان او الى إسماعيل او ادم عليهم السلام ولا يدخل في انساب العرب الدعي وخلصت أنسابهم من شوائب الشك والشبه، واستمر هذا الاهتمام بعلم النسب بعد الإسلام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحُجرَات: ١٣]، واشتهر عدد من الصحابة بهذا العلم من أشهرهم الخليفة أبو بكر الصديق.

ويعرف حاجي خليفة علم النسب: «هو علم يتعرف منه انساب الناس وقواعده الكلية والجزئية والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في نسب شخص وهو علم عظيم النفع جليل القدر أشار الكتاب العظيم»، وتشكل كتب النسب ورقة مهمة في التاريخ الإسلامي، بل يعد هذا العلم مما تميز به المسلمون عن غيرهم من الأمم، فلا توجد أمة من الأمم يوجد لديها ما يناظر أو يقابل هذا العلم.

ورغم أن معظم هذه الكتب قد اهتمت بذكر أسماء الرجال وأنسابهم وقبائلهم، إلا أن فيها معلومات قيمة في ضبط الأسماء وذكر الوفيات والنسبة إلى البلدان، كما أن فيه جوانب خفية للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يمكن للباحث المدقق أن يلتمسها بسهولة.

أما أهم هذه المصنفات التي وصلتنا:

١. جمهرة النسب تأليف: هشام بن محمد الكلبي (ت: ٢٠٤ هـ).

٢. نسب معد واليمن الكبير لابن الكلبي.

٣. أنساب الأشراف لأبي الحسن البلاذري (ت: ٢٧٩ هـ).

٤. نسب عدنان وقحطان تأليف: أبي العباس محمد المبرد النحوي (ت: ٢٨٥ هـ).

٥. جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦ هـ).

٦. الإنباه عن قبائل الرواه لابن عبد البر (ت: ٤٦٣ هـ).

٧. الأنساب لعبد الكريم السمعاني (ت: ٥٦٢ هـ).

٨. نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب تأليف: أبي العباس القلقشندي (ت: ٨٢١هـ).

٩. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان تأليف: أبي العباس القلقشندي (ت: ٨٢١هـ).

١٠. العجاب في بيان الأنساب تأليف: الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ).

١١. لب اللباب في تحرير الأنساب تأليف: الحافظ جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ هـ).



الرواية عند المسلمين

الحديث الأخبار التاريخ

سنن تفسير عقائد رجال وطبقات حوليات أنساب

مغازي وسير أيام العرب وشعرها قصص

المبحث الثاني:
مدارس قراءة التاريخ الإسلامي

لا يمكن أن نفهم التاريخ الإسلامي في وقتا الحاضر بمعزل عن الدراسات الحديثة التي أوصلت إلينا هذا التاريخ وفقاً لأمزجة كتابها، وقد شكلت هذه الدراسات مدارس معروفة لكتابة التاريخ الإسلامي وتقديمه للعالم قاطبة، الأمر الذي أنعكس سلباً على نظرة الآخرين للتاريخ الإسلامي، بل نشأت لدينا مدارس تاريخية تتبنى فكرة كتابة التاريخ وفقاً للمدارس الغربية التي غالباً ما يكون الحس المادي أو العلماني هو الغالب عليها، وسنحاول في هذه العجالة بيان منهج المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي باعتبارهم أول من قدم لنا التاريخ الإسلامي بصورته المعاصرة.

الاستشراق وتفسير التاريخ:

لم يكن لظهور حركة الاستشراق في العالم الغربي هدفٌ محدد بقدر ما كانت تخدم أصحابها أكثر من خدمة من كتبوا عنها، والاستشراق كفكر يقع بين فكرتين أساسيتين كونهما الغرب عن الشرق؛ الأولى هي الملامح التي رسمها الأوربيون عن الشرق من خلال الأحقاد الدينية الإقليمية، وقد لعبت الاحتكاكات العسكرية دوراً في رسم هذه الملامح، والثانية الصور التي رسمتها أقلام مجموعة من المفكريين والأدباء الغربيين، فضلا عن مساهمة الإعلام الغربي في هذه الصور(١).

ولم يكن الاستشراق لينموا ويتطور بعيداً عن دعم المؤسسات الاستعمارية له، فقد كانت الممول السخي لكل نشاطاته في العالم الإسلامي، وغالباً ما وجهت المشاريع الفكرية له وفقاً لحاجات الغرب الباحث عن الثروات

---

(١) جلال العطية. المستشرقون ودراسة التاريخ الإسلامي (بحث منشور على النت).

المادية، لذا فمن الغريب حقاً أن رحيل الأب (الاستعمار)، لم يصاحبه رحيل الابن (الاستشراق) الذي ظل ينمو ويترعرع ويقوى عوده تحت مسمى الدراسات الأكاديمية من أجل رفاهية الشعوب المستعمرة وتطورها ورقيها، فيجد القبول والرضا، من فريق من المسلمين صرفهم الإعجاب بنشاط المستشرقين العلمي في بلادهم عن حقيقة الاستشراق وأهميته، فيتناول من أمور المسلمين ما لا يتناولونه هم أنفسهم، وينشر من تراثهم ما كان ينبغي أن يقوموا هم بنشره وتحقيقه، ومن ثم يكبر فيهم جلدهم وصبرهم ودقتهم في البحث، فيروح يتتلمذ عليهم، فينقل عنهم ويأخذ عنهم مفاهيم دينه[١].

لقد أراد الأوربيون الاستحواذ على مقدرات العالم الإسلامي من خلال الاستغلال الواسع لموارده المختلفة، وفي الوقت نفسه أن يكون هذا العالم سوقاً واسعاً للمنتجات الأوربية التي بدأت تزداد بصورة مطردة بعد أن أصبحت الآلة هي المحرك الأساس للمصانع في أوروبا، مع تقهقر ظاهر في مقدرات العالم الإسلامي، ووقوف الدولة العثمانية عاجزة عن مواجهة الدول الأوربية مجتمعة، فهذه الدولة على قوتها وإخلاص قادتها لم تستطع مواجهة النفوذ الأوربي خاصة الفرنسي والإيطالي والبريطاني في البحر المتوسط هذا من الغرب، أما من الشرق فقد واجهت الدولة الصفوية ـــ الرافضية ـ التي كانت تعتمد في حربها مع الدولة العثمانية على مساعدة الدول الأوربية، في حين تكفلت روسيا بإشغال الدولة الثمانية من الشمال، ورغم هذا فقد صمدت الخلافة العثمانية في الاستانة استنبول أكثر من أربعة قرون[٢].

وقد لعب الاستشراق دوراً كبيراً ـــ من الناحية العلمية ــ في التمهيد للحملات العسكرية الأوربية ضد العالم الإسلامي على اختلاف مدارسه ومشاربه، ذلك أن الدول الاستعمارية كانت بحاجة إلى معرفة جغرافية وسكانية عن البلدان التي كانت توجه إليها الحملات، وقد وفر المستشرقون لها ذلك،

(١) محمد قطب. كيف نقرأ التاريخ الإسلامي، ص ٧.

(٢) ينظر كتابنا: الاستشراق والتنصير: ص ٥٢.

وأكثر منه أيضاً، ويمكن أن نبين أهم المؤشرات لهذا الدافع وفق الآتي:

١. دراسة الدول المراد استعمارها، من كافة النواحي: السياسية والاجتماعية والاقتصادية من أجل استغلال موارد هذه البلدان ومقدراتها على أكمل وجه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى التمهيد للبعثات التنصيرية للوصول إلى أهدافها من أقرب الطرق.

٢. إظهار الحضارة الإسلامية بمظهر العجز والهوان، وإبراز الحضارة الغربية بمظهر التفوق والتقدم والتطور، لكي يفقد المسلمون الثقة والاعتزاز بتاريخهم وحضارتهم، وبالتالي الانسلاخ منها نحو المحتل والتشبث بحضارته وانجازاته.

٣. إبعاد المسلمين عن تعاليم دينهم، وبالتالي أبعادهم عن ذروة سنام الإسلام: الجهاد في سبيل الله، ليأمن المستعمر جانبهم، ويحيد مقاومتهم، يقول غلان روبلس في مؤتمر المستشرقين الخامس: «لنا دافعان يجبراننا على أن نولي اهتماماً جديراً فينا يتعلق بالدراسات العربية: فالأول ذو مصلحة أدبية وتاريخية، والأخر سياسية واقتصادية، أي مصلحة توسعية هدفها تكوين مجد»[١].

٤. لقد مهد المستشرقون لما يمكن أن نسميه بالحرب الثقافية الاستباقية ضد العالم الإسلامي؛ لأنهم يعلمون أن الإسلام يملك كل المقومات التي تؤهله لقيادة العالم كما كان سابقاً، فهم يحاولون أن يبقوا هذا المارد مقيداً وبعيداً عن الوقوف في وجه مطامعهم، يقول لورانس براون «إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي»[٢].

٥. الاستفادة الكاملة من الثروات الطبيعية للعالم الإسلامي، والاستحواذ على ما يمكن من الممرات المائية التي يشكل العالم الإسلامي القلب النابض

(١) مؤتمرات المستشرقين: ص ١٢٨.

(٢) الدراسات الاستشراقية في ضوء العقيدة الإسلامية: ص ٩٢.

لها، وكذلك نهب ثرواته الفكرية والحضارية وهو الأرض الزاخرة بأقدم الحضارات البشرية، فتم نقل هذه الثروات للاستفادة مادياً في أوروبا.

٦. إحلال مفاهيم جديدة، أو إحياء مفاهيم ماتت منذ تمكين الإسلام من قلوب المسلمين، كالقوميات والعنصريات القبلية: الفرعونية والفينيقية والآشورية والكردية والفارسية والتركية ونحو ذلك، ليتسنى لهم تشتيت شمل الأمة الإسلامية الواحدة، التي تجمعهم رابطة واحدة، هي وحدة الدين الذي فيه عزة المسلمين ونصرهم[1].

ونحن لا ننكر وجود استشراق نزيه ـ وإن قل وجوده أو ندر ـ إلا أن هذا الاستشراق النزيه الراغب بالبحث العلمي الحيادي المتجرد عن الهوى الجانح، كان لا يدر على مرتاديه مكاسب ومغانم وكان من الطبيعي أن يندر وجود هؤلاء المرتادين في أوساط المستشرقين.

وهؤلاء مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها، فيتصورونها كما يتصورون مجتمعاتها، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفرق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها.

ومن هؤلاء من يعيش بقلبه وفكره في جو البيئة التي يدرسها، فيأتي بنتائج تنطبق مع الحق والصدق والواقع، ولكن هؤلاء يلقون عنتاً من سائر المستشرقين، إذ سرعان ما يتهمون بالانحراف عن المنهج العلمي، أو الانسياق وراء العاطفة، أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب إليهم، كما فعلوا مع توماس أرنولد حين أنصف المسلمين في كتابه الماتع «الدعوة إلى الإسلام»، فقد برهن فيه على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين، على عكس مخالفيهم معهم، هذا الكتاب الذي يعتبر من أدق وأوثق المراجع في تاريخ التسامح الديني في الإسلام من وجه نظر مخالفيه،

---

(١) عبد الرحمن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة: ص ١٢٩.

يطعن فيه المستشرقون المتعصبون بأن مؤلفه كان مندفعاً بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين، مع أنه لم يذكر حادثة إلا أرجعها إلى مصدرها.

ومن هؤلاء من يؤدي به البحث الخالص لوجه الحق إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه في أوساط أقوامهم الغربيين، كما فعل المستشرق الفرنسي الفنان دينيه الذي عاش في الجزائر فأعجب بالإسلام وأعلن إسلامه، وتسمى باسم ناصر الدين دينيه وألف مع عالم جزائري كتاباً عن سيرة الرسول، وله كتاب أشعة خاصة بنور الإسلام بيَّن فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله، وقد توفي هذا المستشرق المسلم في فرنسا، ونقل جثمانه إلى الجزائر ودفن فيها

ومنهم أيضاً المستشرق عبد الكريم جرمانوس وهو عالم مجري اعتنق الإسلام في الهند، ولد سنة (١٨٨٥) وتوفى سنة (١٩٧٩م)، وكان يتمنى أن يعيش مائة عام، لأن اللغة العربية في رأيه تحتاج إلى مائة سنة لفهمها، كان عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة، أحب الإسلام واللغة العربية وخدمهما، ألف أكثر من مائة وخمسين كتاباً عن الإسلام[١].

وفي مجال اهتمام المستشرقين بدراسة التاريخ العربي الإسلامي سنجد عدداً كبيراً جداً من دراسات المستشرقين موجها على كتب التاريخ، ونشرها وأصولها ومصادرها، وأحداثها، وكتب تاريخ السّير والمؤرخين، منذ عهود الرواية إلى التدوين، إلى المؤرخين الكبار «الطبري وابن الأثير، مثلاً» وصولاً إلى ابن خلدون، ودراساتهم التاريخية تقوم على تقسيمات جغرافية وإقليمية وعنصرية ومذهبية وطائفية، القصد منها التفكيك والتفتيت والتمزيق

والمتتبع لكتابة المستشرقين عن تاريخ الإسلام يلاحظ أنهم ركزوا أول ما ركزوا على هدم الأساس الذي قام عليه التاريخ الإسلامي وهو النبي ﷺ وسيرته الطيبة العطرة، فوصفه رواد الاستشراق من الكتاب المسيحيين الغربيين في القرون الوسطي وعصر النهضة بعدة أوصاف مفتراة، تدور كلها حول اتهامه بالكذب، وادعاء الوحي وأنه مبتدع للإسلام، مؤلف القرآن ومن ثم

(١) أجنة المكر الثلاثة: ص ١٣١ وما بعدها.

ينسبون إليه الإسلام فيقولون: المحمدية، كما ينسبون المسيحية إلى المسيح، وكذلك وصفه ﷺ بالسحر والشهوانية، والدعوة إلى الإباحية الجنسية، والغدر، والعنف، ونشر الإسلام بالسيف، وأن الإسلام نفسه نوع من الهرطقة.

ولم يكن مكمن الخطر في أشخاص هؤلاء المستشرقين، وإنما في تأثيرهم من خلال وجودهم في المناطق ذات التأثير المباشر على المجتمع مثل المؤسسات التعليمية والتربوية، فقد كان من أخطر ما واجه التاريخ الإسلامي هذه المجموعة من أتباع المستشرقين وحملة ألوية الفكر الغربي ودعاة التغريب الذين سيطروا على مجال التربية والتعليم، والذين ما زالوا منبثين في عديد من الجامعات والمعاهد الخاصة بالإرساليات حيث نجد الشباب المسلم يعرف عن نابليون أكثر مما يعرف عن خالد بن الوليد وطارق بن زياد.

وأتباع المستشرقين للأسف هم الذين ينفّذون سياسة أساتذتهم على الأرض عبر واجهة أكاديمية مكتوب عليها مسمى تعليمي أو تربوي، ولا مندوحة إذا ما رأينا كثرة المتخصصين في تاريخ أوربا بإشكاله وأنواعه وقلة المتخصصين في التاريخ الإسلامي الذي يستمد حياته وحيويته وطاقته على البقاء والاستمرار، من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،والذي فيه تبيان لكل شيء لم يستبينه المستشرقون وتلامذتهم الذين عميت أبصارهم عن رؤية الحق وضاح أبلج.

وكذلك يستمد شبابه وعنفوانه من سنة المصطفى ﷺ والتي جاءت مفصلة لما أجمل وأشكل في كتاب الله حيث ظل فهم الاستشراق والمستشرقين قاصراً عن فهم محتواه، وحفظاً لوقت القارئ وجهده في التعرف على المناهج التي اختطها عدد كبير من المستشرقين لكتابة التاريخ الإسلامي خاصة والعلوم الإسلامية عامة، نجمل ذلك في الآتي:

١. **محاولة رد معطيات الدين الإسلامي إلى أصول يهودية ونصرانية**، ويتمثل هذا الأمر في كثير من الكتابات حول الوحي وحول القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ونستشهد على هذا بأن معظم المستشرقين النصارى هم من

طبقة رجال الدين أو من الخريجين من كليات اللاهوت، وهم عندما يتطرّقون إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني، وقد ذكر طيباوي أن عدداً من المستشرقين الناطقين باللغة الإنجليزية يعتقدون بذلك ومنهم على سبيل المثال مونتجمري وات وبرنادر لويس وغيرهم[١].

٢. **التشكيك في صحة الحديث النبوي الشريف**؛ فقد دأب المستشرقون عموماً على التشكيك في صحة الحديث النبوي الشريف من خلال الزعم بأن «الحديث لم يُدوّن وقد نقل شفاهةً مما يستوجب في نظرهم عدم صحة الأحاديث»[٢]، كما زعما أن الوضع هو القاعدة السائدة ليس في الرواية التاريخية، بل حتى في الأحاديث النبوية

٣. **البحث على الضعيف والشاذ من الروايات**: يقول جواد علي «لقد أخذ المستشرقون بالخبر الضعيف في بعض الأحيان وحكموا بموجبه، واستعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً، أو كان من النوع الذي استغربة النقدة وأشاروا إلى نشوزه، تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك»[٣].

٤. **الاهتمام بالفرق والأقليات** وأخبار الصراعات والبحث عن الوثنيات والتاريخ السابق لبعثه الرسول حيث كثرت كتابات المستشرقين عن الفرق كالشيعة والإسماعيلية والزنج وغيرهم من الفرق التي ظهرت في التاريخ الإسلامي وأعطوها من المكانة والاهتمام أكثر مما يستحق، بل إن هناك من أطلق عليهم لقب المعارضة لإعطاء ما قاموا به من عداوة لله ولرسوله شرعية، كما حصل بعضهم على درجة الدكتوراه في بحوث حول هذه الفرق.

٥. **الخضوع للهوى والبعد عن التجرد العلمي**: «فالمستشرق يبدأ بحثه وأمامه غاية حددها، ونتيجة وصل إليها مقدماً، ثم يحاول أن يثبتها بعد ذلك،

---

(١) عبد اللطيف طيباوي.المستشرقون الناطقون باللغة الانجليزية. ترجمة قاسم السامرائي.ص ١٠-١٣.

(٢) عبد القهار دواد العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية عمان: دار الفرقان، ١٤٢١هـ ص ١٢١.

(٣) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٨.

ومن هناك يكون دأبه واستقصاؤه الذي يأخذ بأبصار بعضهم..»[(١)]، وتلك هي أعلى مراتب الفهم للمستشرقين ومقاصدهم الحقيقية وأهدافهم الواضحة الجلية التي ينبغي فهمها كما هي بالكلية العقلية.

٦. **التفسير بالإسقاط**: ونعني إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ فيفسرونها في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم

٧. **المنهج الانتقائي وإثارة الشكوك في معطيات السُّنة والتاريخ،** فقد عرف عن كثير من المستشرقين في كتابيهم حول السيرة النبوية الشريفة وحول التاريخ الإسلامي أنهم ينتقون بعض الأحداث والقضايا ويكتبون عنها ويهملون غيرها، كما أنهم يشككون في أمور من المسلمات لديننا في التاريخ الإسلامي

٨. **التحريف والتزييف والادعاء،** فقد قام بعض المستشرقين بتحريف كثير من الحقائق التي تخص الإسلام وتاريخه فمن ذلك مثلاً أن بعضهم أنكر عالمية الإسلام وبخاصة فيما يتعلق برسائل الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء خارج جزيرة العرب كرسائله إلى هرقل والمقوقس وكسرى، وإنكار عالمية الرسالة الإسلامية يظهر فيما كتبه جوستاف لوبون في كتابه تاريخ العرب حيث زعم أن الرسول ﷺ رأى أنه كان لليهود أنبياء وكذلك للنصارى فأراد أن يكون للعرب كتاب ونبي!

٩. **اعتماد مصادر غير موثوقه لدى المسلمين،** فمن العيوب المنهجية في الدراسات الاستشراقية أنهم يعتمدون على المصادر غير الموثوقة عند المسلمين فيجعلونها هي المصدر الأساسي لدراساتهم وبحوثهم، ومن ذلك أنهم يرجعون إلى كتاب مثل كتاب الأغاني للأصفهاني فيجعلونه مرجعاً أساسياً في دراساتهم للتاريخ الإسلامي وللمجتمع الإسلامي، كما يعمدون إلى المراجع التي ضعّفها العلماء المسلمون أو طعنوا في أمانة أصحابها فيجعلونها أساساً لبحوثهم،

---

(١) عبد العظيم الديب. المنهج في كتابات الغربين عن التاريخ الإسلامي. قطر: كتاب الأمة، عدد ٢٧ ص٥٢.

أوكان أصحاب تلك المراجع منحازين إلى فئة معينة أو متعصبين.

المدارس الغربية في قراءة التاريخ:

لقد مر التفسير الأوربي للتاريخ بمراحل عديدة، نظراً للتطورات التي حدثت في أوروبا خلال القرون المتعاقبة، ففي العصور الوسطى الاوربية كان التاريخ ينصب على توثيق دور الكنيسة وكانت نزعة القديس اوغسطين في ان «الدين» هو محور الحياة هي السائدة وقد عبر عن ذلك من خلال كتابه مدينة الله». . وفي عصر النهضة الاوربية أصبح «الإنسان» هو المحور الاساس في توثيق أي نشاط تاريخي.

وفي القرن التاسع عشر ارتبط التاريخ بالعلم. وصار المؤرخون يبحثون عن قوانين تتحكم في التاريخ شبيهة بقوانين الطبيعة وقد كتب عن هذا كولنجوود في كتابه: فكرة التاريخ وقال مثلما توجد قوانين تتحكم في سير الطبيعة، فأن هناك قوانين تتحكم في سير البشر.

وجاء الفيلسوف فردريك هيكل ليؤكد على فكرة العقل الفعال في التاريخ ونادى بالفكرة القائلة بأن البشرية تسير الى عصر ذهبي. وقال ان الفكر او العقل وراء تطور التاريخ، انتقد كارل ماركس ماقاله هيكل وقال ان هيكل قلب الفلسفة وجعلها تسير على رأسها فالمادة هي وراء تطور التاريخ أي ان طرق الانتاج وما تتمخض عنه من علاقات اجتماعية هي التي تكمن وراء حوادث التاريخ ووقائعه وقد عرفت فلسفة هيكل بالفلسفة المثالية في حين عُرفت فلسفة ماركس بالفلسفة المادية.

وجاء المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي في كتابه المشهور «دراسة للتاريخ» لكي يفسر التاريخ في ضوء مجموعة من القوانين فقال: إن هناك (٢١) حضارة منها الحضارة العربية الاسلامية ومنها الحضارة الغربية وقال ان الحضارات تظهر بسبب الظروف الطبيعية الصعبة وهكذا ظهرت حضارة العراق القديم وحضارة مصر القديمة وتحدث عن نشوء الحضارات وانهيارها وفق ما اسماه نظرية التحدي والاستجابة وقال بنظرية الانسحاب والعودة فالرسول الكريم محمد ﷺ انسحب لفترة للتعبد في غار حراء وانعزل عن مجتمع قريش ثم عاد

ليعيد تنظيم المجتمع وفق قيم جديدة ودين جديد.

وقد سار بعض العرب من المسلمين على هذه المدارس الغربية والاستشراقية في كتابة التاريخ الإسلامي، بل الأدهى من ذلك أن معظم المناهج الدراسية في الدول العربية كتبت وفقاً لتصورات تلك المدراس، وقد بدى التأثر الواضح للكتاب العرب بهذه المدارس خاصة كتاب القرن الماضي، لكن بقيت نوازع الصرعات في نفوس أصحابها واضحة للعيان، بما فيها من واقعية الاتصال المباشر بروح تلك الحضارة بحكم الانتماء واللسان والثقافة الأولى التي نشأ عليها مؤرخو هذه المدرسة.

يقسم المؤرخ العربي البارز الراحل دقسطنطين زريق الأبحاث التاريخية في الوطن العربي إلى أربعة اتجاهات(١):

ـ **التيار التقليدي**: الذي حافظ على نظرة المؤرخين القدامى، يلخص هذا الاتجاه تاريخ الإنسانية في تاريخ الإسلام وينقاد للأنانية القومية، ثم يلجأ في تعليل الأحداث إلى القدر الإلهي ويتورع عن نقد رواية السلف الصالح.

ـ **الاتجاه القومي**: أكان قوميا عربيا أم قوميا محليا إقليميا، الذي ينغمس في الماضي القومي ويميل إلى التجريد والتزويق على الطريقة الرومانسية، يخضع التاريخ لفكرة سياسية مسبقة و في بعض الأحيان لسلطة سياسية قائمة، ويغالي في تعظيم الماضي القومي ويبخس حق ماضي الإنسانية كجماعة، يستعمل المنهج النقدي لتفنيد أقوال الغير ولا يخضع له فيما يخص أقوال بني جلدته، يمزج دائما التفسير بالغيبيات والتفسير بالقوانين الواقعية.

ـ **الاتجاه الماركسي والاتجاه الوضعي** المتماثلان من حيث الأسلوب وطرائق البحث والخلفيات المعرفية لكن الأول ضيق في نظر المؤلف، متحيز، غير شمولي، يقول بوحدوية العلة «العامل المادي الاقتصادي»، في حين أن الثاني أكثر شمولية، يقول بتعدد العوامل المسيرة للتاريخ، من مادية وروحية، من فردية وجماعية، من سياسية واقتصادية.إلخ والاتجاه الوضعي هو السائد في

(١) العرب والفكر التاريخي: ص ٨٩.

المدرس والجامعات.

وأهم خلل وجدناه في هذه المدرسة المتأثرة بالفكر الاستشراقي ــ الغربي اهمالها التفسير الإسلامي للتاريخ، والجنوح نحو التفسير الغربي مادي، رغم أن هذا التفسير لا يصلح لفهم هذا التاريخ، فال تاريخ الإسلامي لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الإسلامية للحياة، وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس فهو ضرب من النكسة الفكرية، لا يجب أن ترتكب من باحث جاد، أو مؤرخ يبتغي وجه الحق وحده، ولذلك فإن كل مؤرخ عربي يفسر التاريخ الإسلامي وفق منهجه الغربي يقع في الخطأ الذي يتمثل في بعده عن ظاهرة أساسية، هذه الظاهرة هي وحدة المناهج الإسلامية، والفكر الإسلامي في مختلف فروعه وتكاملها، بينما يؤمن الغربي بتجزئة هذه المفاهيم، والفصل بين الله وبين الطبيعة والعلم والدين، والإسلام وحده هو الذي يجمع بين العلم والدين في وحدة تامة غير متناقضة، ومن هنا فإن تطبيق التجزئة الغربي يحول بين الباحث وبين الوصول إلى الحقيقة، ويجعل الأمور أمامه غامضة مضطربة[١].

والعجيب في ذلك أن بعض المستشرقين وصل إلى نتيجة عجز عنها بعض العرب من كتاب التاريخ، وهي نتيجة قولها على مضض، هذا المستشرق هو تريتون في كتابه الإسلام عقيدته ومبادئه: «إذ صح في القول إن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإن ها التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم، واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفردية، ليروا أنها تقع في هذا الشيء الجديد، إلا وهو الإسلام»[٢].

(١) أنور الجندي، سموم الاستشراق: ص ٣٠٠.

(٢) المصدر السابق.

النظرة الإسلامية للتاريخ:

إن القرآن أعطى للتاريخ مساحة واسعة، فكم من مرة ذكر قصص التاريخ ووقائع القرون الماضية وسنن الهلاك وعاقبة الذين لا يعتبرون بالتاريخ ولا يصدقون أن في التاريخ وأحداث القرون عبرة وعظة، فما موقع التاريخ في القصة القرآنية؟

يقول الدكتور عماد الدين خليل: هنالك ثلاثة مستويات في تعامل القرآن مع التاريخ، المستوى الأول السرد التاريخي للوقائع وهذا يغطي مساحات كبيرة من القرآن قد تتجاوز النصف والمستوى الثاني يذهب إلى ما وراء الحدث لكي يعطينا تصوراً عن السنن التي تحرك التاريخ، ما يسميه فلاسفة التاريخ بقوانين الحركة التاريخية، وثمة طبقة ثالثة تحدثنا عن الجانب الحضاري، عن القوة المؤثرة التي تصنع الحضارات والأمم والدول والإمبراطوريات أو تقودها إلى الانكماش والسقوط والوقائع التاريخية في القرآن الكريم يتم التعامل معها بشكل مرشد ومجتزىء فلا يتناول القصة القرآنية بشكل تفصيلي، وذلك لأن القرآن ليس كتاب تاريخ في نهاية الأمر، فعلى ما في القرآن من مساحات واسعة أعطيت للتاريخ فهو ليس كتاب تاريخ، بمعنى أنه لا يحاول أن يغطي الأحداث بكل تفاصيلها وإنما يجتزىء من هذه الأحداث الخطوط العريضة التي يمكن أن تستخلص منها العبرة أو المغزى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يُوسُف: ١١١]، أي لذوي العقول القديرة على استخلاص المغزى من قراءتها للتاريخ، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

فكأن قراءة التاريخ تعطينا المغزى وتعطينا التعاليم التي ترحم الأمم والشعوب من أن تقع في مخاطر جديدة وتنزلق باتجاه ما انزلقت إليه الأمم الأخرى، والقرآن الكريم بمنحه هذه المساحات الكبيرة للتاريخ لكنه يمضي إلى ما وراء الزمن وما وراء المكان وما وراء الشخوص انه يمضي إلى الواقعة

التاريخية في خلاصاتها الأساسية من أجل أن نستخلص منها العبرة والمغزى التي تضيء لنا الطريق في اللحظات الراهنة إلى المستقبل الموعود.

وسنحاول الآن ذكر مجموعة من القواعد والضوابط التي يمكن من خلالها قراءة الحوادث التاريخية، وتفسيرها تفسيراً يتمشى مع النظرة الإسلامية للكون والإنسان والحياة(١).

١. **اعتماد المصادر الشرعية؛** ذلك أن المصادر الشرعية الكتاب والسنة هما أساس هذا الدين، أما الأول فقد تكفل الله تعالى بحفظه، وأما المصدر الثاني فيحوي مصداقية عالية نظراً لعناية العلماء بتوثيقه، واعتمادهم المنهج العلمي المعتبر في تحقيق الروايات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: تدل هذه المصادر على سنن كونية جاءت عن طريق الوحي، والعجيب أن بعض المؤرخين يترك هذه النصوص الشرعية، ويتمسك بالنظريات التاريخية المعتمدة عند المؤرخي الغرب، خاصة ممن تأثر بالمدارس الاستشراقية، ومن خلال تتبع السنن الربانية في كتاب الله وسنة رسول _+ نفهم حركة التاريخ وتطور الأحداث، فغالباً ما يكون الانحراف مرتبطاً بالوقوع في الشرك والفساد في الأرض قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٧]، والقرآن والسنة يعطيان الباحث القواعد الشرعية الكونية التي يمكن من خلالها تفسير التاريخ تفسيراً ينتفع به في حياته، ويكون متناسباً له في بيئته، لأن في واقع الحال يعيش ظروفاً شبيهة بتلك التي مرت على الذين من قبله. مع اختلاف الزمان والمكان.

٢. **الإيمان ودوره في تفسير الأحداث:** إن المحرك الأساسي لتصرفات الشخوص في التاريخ الإسلامي هو الإيمان، ومن المفارقة أن هذا الأمر لا يشعر به إلا من تسلل إلى خلجات قلبه، وهذا يفسر فشل المستشرقين في فهم التاريخ الإسلامي، وعلى سبيل المثال: ما كانت الهجرة من مكة للمدينة إلا في سبيل الله تعالى، وخلدت السيرة من فعل خلاف ذلك كـ«مهاجر أم قيس»،

---

(١) د. محمد أمحزون، منهج دراسة التاريخ الإسلامي: ص ٦٨.

وهكذا هي مجريات التاريخ الإسلامي ـ خاصة في صدر الإسلام ـ ولا نعني هنا النواحي السياسية أو العسكرية حسب، بل نعني كل جوانب التاريخ الأخرى، ولا نستبعد حتى المعجزات في ذلك ؛ لأننا نؤمن بوقعها لأولياء الله تعالى الصالحين بعد وفاة الرسول ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً مثل ما كان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهى الملائكة نزلت لقراءته، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما رواه البخاري وغيره»[١].

٣. **العوامل المؤثرة في حركة التاريخ**: يقوم التفسير الإسلامي للتاريخ على أن الله تعالى هو المدبر لأمور الكون، لا تخفى عليه خافية، كل ذلك بأمره وتقديره جل شأنه ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، ولا يهمل التاريخ الإسلامي العوامل الأخرى المتحكمة بالأحداث، وإن كانت هي ـــ وفقاً لإيمانه ــ ليست المحرك الأساس لحركة التاريخ، وهذا يجعلنا ندرك أن مقومات النفس الإنسانية لا يمكن أن تفصل بين الروحي والجسدي فيها كما فعل ماركس في تفسيره المادي للتاريخ، أو تفسير شهواني كما فعل فرويد بذلك، فبواسطة اتباع الوحي المنزل والمحفوظ «من كتاب وسنة» يعرف المسلم هذه العوامل، ويعرف قدر كل عامل وقيمته وتأثيره في النفس، والنسب الصحيحة للعلاقات بين تلك العوامل جميعاً، ففي معركة بدر اجتمعت عوامل عديدة أدت إلى انتصار المسلمين منها: إيمانية ونفسية وتنظيمية واستراتيجية وجغرافية وغيبية

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٢٧٦.

«نزول الملائكة للقتال»، ولا يمكن لمؤرخ منصف أن يدرس عوامل النصر دون أن يستعرض هذه الأسباب مجتمعة.

٤. **أنزلوا الناس منازلهم**: لقد كان المسلمون عبر تاريخهم يعطون كل ذي حق حقه، ولا يتطرفون في وصف أبطالهم أو يبالغون في ذم أعدائهم، وقد انعكس هذا بصورة عامة على مناهجهم العلمية خاصة في مجال العلوم الشرعية، وهو الأمر الذي يجب أن نستعير تلك المعاني ونحن نقرأ تاريخنا الإسلامي، وقد قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في فتواه عن التتار وحكم قتالهم، فقد ذكر أن الحكم على أي طائفة أو قوم يقوم على أصلين:

أحدهما: المعرفة بحالهم.

والثاني: معرفة حكم الله في أمثالهم.

وهذا الأصلان يقومان على العلم المنافي للجهل، والعدل المنافي للظلم، إذ الكلام في الناس لا يجوز بغير علم وبصيرة[1]، ووفقاً لذلك يجب أن ينظر المسلم إلى تاريخ الصحابة، فالمعرفة بحالهم تدل على كمال إيمانهم وصدق سريرتهم، وفعلهم الخيرات، وتضحيتهم بأنفسهم وأموالهم، وتزكية النصوص الشرعية لهم، ووفقاً لذلك يتم النظر إلى ما حصل بينهم من خلافات سياسية هي من قبيل الأمور الاجتهادية التي لا تقدح في مكانتهم ولا تدل على عصمتهم، وهو خلاف شبيه بخلاف الفقهاء في الفروع، فلا ينبغي أن تحمل محمل الانتقاص منهم، فإن لم يكن للمسلم علم يوصله لفهم تلك الأحداث، فليرجع إلى أولي العلم ممن له قدم راسخة في الاختلافات التاريخية والتأويلات السياسية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٣].

وهنا أمور نود التنبيه عليها:

أ. **عدم إقحام المسائل العقدية في المسائل التاريخية**، لأننا لا يمكن أن

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥١٠.

نستنبط عقيدتنا من كتب التاريخ المليئة بالروايات الضعيفة والمدسوسة، وإنما نأخذها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الصحيحة، ثم ما قاله سلف هذه الأمة في ذلك الخلاف، كما روي عن أبي حنيفة أنه قال عندما سئل عما شجر بين الصحابة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٤].

ب. **التفريق بين الروايات التاريخية الصحيحة وبين الضعيفة والموضوعة**، وقد بلغت الجرأة بالوضاعين بنسبة كلام مكذوب للنبي ﷺ، فكيف بمن هو دونه، خاصة من كان في نفسه مرض أو زيغ أو اعتقاد فاسد.

ج. **الابتعاد عن أسلوب التشكيك** المتبع في المدارس الفلسفية الغربية، ومبدأ الفلسفي المشهور «شك ثم قرر» في تفسير التاريخ الإسلامي، ذلك أنا مأمورون بإحسان الظن بعامة الناس فكيف بالقرون الثلاثة الفضيلة التي شهد لها رسول الله ﷺ بالفضيلة عمن سواها، كما أن حسن الأدب يقتضي السكوت عن الذنب، وإنما حسن الأدب يقتضي السكوت عن الظنون، والكف عن اقتفاء ما لا علم لنا به يقيناً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾ [الحُجرَات: ١٢].

٥. **العدالة في الأحكام**: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم كحال أهل البدع»[(١)].

ويدخل ضمن هذه القاعدة العدل في وصف الآخرين، وحين نجد من يذم غيره بذكر مساوئه فقط، كما فعل الشعوبية في مؤلفات المثالب فإن ذلك يرجع إلى الحسد والبغضاء، أو إلى الظنون والخلفيات والآراء المسبقة أو التنافس المذموم، ومن العلماء الذين كان لهم شأن في هذه العدالة الذهبي رحمه الله في كتابه النفيس «سير أعلام النبلاء»، فقد انصف من ترجم لهم من الأعلام، فلم يبخس أهل البدع أو الفسق ما لهم من صفات حميدة، بل انصفهم بكر ما لهم وما عليهم، فيقول مثلاً عن الأشتر النخعي: «أحد الأشراف الأبطال

(١) مجموع الفتاوى: ٤/ ٣٣٧.

المذكورين، وكان شهماً مطاعاً. ألب على عثمان وقاتله، وكان ذا فصاحة وبيان»[١].

وقال عن الجاحظ: «العلامة المتبحر ذو الفنون، وكان أحد الأذكياء، وكان ماجناً قليل الدين، له نوادر»[٢].

٦. **العبرة بكثرة الفضائل**: فإن الماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث، وكذلك من غلبت فضائله هفواته اغتفر له ذلك، وفي هذا الصدد يقول الحافظ الذهبي: «وإنما العبرة بكثرة المحاسن»، وهذه قاعدة جليلة بمثابة منهج صحيح في الحكم على الناس ؛ لأن كل إنسان لا يسلم من الخطأ، لكن من قل خطؤه وكثر صوابه فهو على خير كثير، والإنصاف يقتضي أن يغتر للمرء الخطأ القليل في كثير صوابه، ومنهج أهل السنة هو اعتبار الغالب على المرء من الصواب أو الخطأ، والنظر إليه بعين الانصاف، وما أحسن أن نذكر في هذا المقام تلك القاعدة التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية».

٧. إحالة الخطأ على قاعدة الاجتهاد: نحن لا نقول بعصمة أحد بعد النبي ﷺ وإنما هي سنن ربانية كتبها الله تعالى على بني آدم، وهذا حق، ومن هنا يجب أن نعلم أن الذين صنعوا التاريخ رجال من البشر، يجوز عليهم الخطأ والسهو والنسيان، وإن كانوا من كبار الصحابة وأجلائهم، إلا أنه ينبغي إحالة الحوادث إلى الخطأ في الاجتهاد، إذ غالب تلك الأمور التي صدرت عنهم، صدرت وهم على رأس خلافة أو إمارة أو قيادة، وفي الحديث الصحيح: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[٣].

وعليه فإنه ينبغي للمسلم أن يرد كل خبر يطعن في عدالة الصحابة، وأن ينزه أصحاب رسول الله ﷺ عن الصفات الخبيثة واللئيمة التي حاول أعداء

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٤.
(٢) المصدر السابق: ٢٠/ ٤٦.
(٣) متفق عليه: البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٥).

هذا الدين إلصاقها بهم، وأن لهم فضل الصحبة التي خصوا بها، ونالوا بها من الفضل ما لم يدركه أحد بعدهم، قال ابن حجر الهيتمي: «وأما ما اختص به الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وفازوا به من مشاهدة طلعته ورؤية ذاته المشرفة المكرمة فأمر من وراء العقل، إذ لا يسع أحدا أن يأتي من الأعمال وإن جلت بما يقارب ذلك فضلا عن أن يماثله، ومن ثم سئل عبد الله ابن المبارك ـ وناهيك به جلالة وعلما ـ أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال الغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله خير من عمر بن عبد العزيز كذا وكذا مرة، أشار بذلك إلى أن فضيلة صحبته ورؤيته لا يعدلها شيء»[(١)].

٨. **فائدة علم الجرح والتعديل**: ينبغي للباحث في التاريخ الإسلامي أن يستعين بعلم التوثق من صحة الرواية ــ والذي ابتكره المحدثون ــ في التحقق من الرواية التاريخية، خاصة فيما يتعلق بتاريخ الحقبة الراشدة والأموية، فمثلاً الرواية عن الشيعة كانت مشروطة عند علماء الحديث وأكثر العلماء لا يرون رد الحديث لمجرد البدعة للذي لم يكن داعياً لها، كما لا يعني هذا اعتماد تشدد المحدثين في قبولهم الخبر، فلهم مذهب مستقل في ذلك وكان الإمام أحمد يقول: «ثلاثة كُتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير»[(٢)].

ثم يفسر الخطيب ذلك فيقول: «وهذا الكلام محمولٌ على وجه، وهو أنّ المراد به كُتُبٌ مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها، ولا موثوق بصحتها، لسوء أحوال مُصنّفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القصّاص فيها، فأما كتب الملاحم، فجميعها بهذه الصفة، وليس يصح في ذكر الملاحم المرتقبة، والفتن المنتظرة غير أحاديث يسيرة اتصلت أسانيدها إلى الرسول ﷺ من وجوه مَرضية، وطرق واضحة جلية.. وأما المغازي فمن المشتهرين بتصنيفها وصرف العناية إليها: محمد بن إسحاق المطّلبي، ومحمد بن عمر

(١) الصواعق المحرقة: ٢/ ٦١٢.

(٢) الخطيب البغدادي، الجامع: ٢/ ١٦٢.

الواقدي، فأما ابن إسحاق فقد تقدمت منّا الحكاية عنه، أنه كان يأخذ عن أهل الكتاب أخبارهم ويُضمنها كتبه، وروي عنه أيضاً أنه كان يدفع على شعراء وقته أخبار المغازي ويسألهم أن يقولوا فيها الأشعار لِيُلْحِقها بها، وأما الواقدي فسوء ثناء المحدثين عليه مستفيض، وكلام أئمتهم فيه طويل عريض، ونقل عن الشافعي قوله: كتب الواقدي كذب».

ثم قال الخطيب: «وليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره، وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره فما روي من هذه الأشياء عمن اشتهر تصنيفه وعرف بجمعه وتأليفه هذا حكمه، فكيف بما يورده القصّاص في مجالسهم، ويستميلون به قلوب العوام من زخارفهم؟ إنّ النقل لمثل تلك العجائب من المنكرات، وذهاب الوقت في الشغل بأمثالها من أخسر التجارات».

والمذهب الوسط بتقديرنا في الأخذ بالروايات التاريخية هو الربط بين المتن والإسناد، فإن كان المتن يوافق الميول العقدية للراوي المطعون فيه، فالأفضل ترك الرواية، أما إن كان خلاف ذلك فينظر إلى المتن ونقده نقداً داخلياً ومقارنته بالروايات الأخرى «على طريقة المحدثين في تتبع شواهد الحديث»، وحينئذ نصل بإذن الله تعالى إلى طريقة مثلى لتمحيص الروايات.

٩. **معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والفرق**: اعتنى أهل السنة بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم لتعرف أحوالهم ومواقفهم ويكون المسلم على بينة منها، فلا يخدع من قبلهم، ولأجل هذا لابد للمؤرخ المسلم من التعرف على اتجاهات هؤلاء وعقائدهم، لأن ذلك يمكنه من التعامل مع النصوص التي وأوردوها بما لديه من خلفية عن اتجاهاتهم وآرائهم ومواقفهم، ثم يقارنها بغيرها من الآراء التي عند المؤرخين أو العلماء العدول الثقات، وعلى ضوء المقابلة والمقارنة بين النصوص ينظر إلى تعصب الراوي من عدمه، فمن لاحت عليه أمارات التحزب أو التحيز لنحلة أو طائفة أو مذهب لا يؤخذ منه في هذه الحال، أما من لا يلحظ عليه التعصب ــ وإن كان من أهل البدع ــ وكان صدوقاً في نفسه معروفاً بالورع والتقوى والضبط تقبل روايته.

١٠. **معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين**: إذا كان للتاريخ الإسلامي قواعد وأصول وضوابط شرعية يجب على المؤرخ المسلم أن يلتزم بها، فذلك يعني الاحتياط عند الأخذ من كتب غير المسلمين، خصوصاً وأن الحرية بلا قيود وبلا ضوابط تلقاها العلمانيون في الغرب أو الشرق، وطبقوها على التاريخ الإسلامي بسبب الاختلاف في التصورات والمفاهيم والمبادئ، مما جعل نتائج أبحاثهم ودراساتهم مناقضة للأحكام الإسلامية، وواقع المجتمع الإسلامي، لهذا فإن القضايا التي تطرحها كتب غير المسلمين من يهود ونصارى وغيرهم، والتي تعالج التاريخ الإسلامي ـــ خصوصاً الصدر الإسلامي الأول ـ ينبغي أن تدرس بعناية وحذر شديدين، لأنهم لا يصدقون في كثير مما يقولونه عن الإسلام ونظمه ورجاله، ولا يحل وفق ذلك لمسلم أن يروي عنهم أو يأخذ منهم، لا سيما وأن من شروط البحث في هذه القضايا عرض الأقوال والأعمال على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم إذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم الضعيف الضبط، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة! ويضمر من الحقد والبغضاء لهذا الدين مالا يعلمه إلى الله.

١١. **مراعاة ظروف العصر الذي وقعت فيه الحادثة**: ينبغي أن نعلم أن بعض تلك الأحداث الواقعة في صدر الإسلام لا يبررها غير ظروفها التي وقعت فيها، فلا نحكم عليها بالعقلية أو الظروف التي نعيش فيها نحن أو بأية ظروف يعيش فيها أصحاب تلك الأحداث، لأن الحكم حينئذ لن يستند إلى مبررات موضوعية، وبالتالي تكون نظرة الحاكم إلى هذه الوقائع غير مطابقة للواقع، ومن الملاحظ أن الخلط بين الواقع المأساوي الذي يعيشه المسلمون في هذا العصر، وبين واقع المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام يرجع إلى الخطأ في الفهم الناتج في الغالب عن الصورة القاتمة والمغرضة التي يتلقاها النشء عن تاريخ الإسلام وحضارته بواسطة المناهج المحرفة التي تعمم الأحكام وتشوه بذلك التاريخ، ولاشك أن مصدر الخطأ في هذه المنهاج هو تدخل أصحابه بالتفسير الخاطئ للأحداث التاريخية وفق مقتضيات وأحوال

عصرهم الذي يعيشون فيه، دون أن يراعوا ظروف العصر الذي وقعت فيه الحادثة، وأحوال الناس وتوجهاتهم في ذلك الوقت، والعقيدة التي تحكمهم ويدينون بها، أو بعبارة أخرى إن مصدر الخطأ في منهجهم هو تطبيق واقع العصر الحاضر ومفاهيمه على العصور السابقة، مع أن لكل عصر مميزاته الواضحة التي تسمى في منهج البحث العلمي روح العصر.

١٢. **استعمال المصطلحات الإسلامية**: تعد قضية المصطلحات من أشد العناصر أثراً وأهمية وخطورة في ثقافة الشعوب، لأنه عن طريقها يتم تثبيت المفاهيم والأفكار، ولأن المصطلحات بهذا القدر من الأهمية فإنه منذ أن تقرر في أوكار الصهيونية والصليبية تدمير الخلافة الإسلامية، وأعداء الأمة الإسلامية يحرصون على تخريب الفكر الإسلامي وتشويه العقل المسلم من باب المصطلحات والمفاهيم، فقد كان من تأثير الغزو الثقافي الأوربي للمسلمين أن شاعت بينهم مصطلحات ومفاهيم غريبة عن عقيدتهم وثقافتهم حتى كادت أن تختفي المصطلحات الإسلامية، على أن هذا المنزلق يتمثل في عدم وعي الباحثين المعاصرين بأن المصطلحات الحديثة إنما تنبثق من رؤية خاصة للفكر الغربي .

فالمثقفون في العالم الإسلامي كانوا إلى مشارف الخمسينيات لا يدركون أن المصطلح جزء لا يتجزأ من التركيبة أو البنية الحضارية لأي مجتمع، و كانوا في حالة الدفاع عن الذات، يحاولون أن يوجدوا لكل عنوان برّاق في المدنية الغربية مثيله في الإسلام، ولنذكر على سبيل المثال مصطلح: اليمين و اليسار و الاشتراكية و الديمقراطية و الرأسمالية. الخ، ورغم أن هذه المصطلحات لعبة صهيونية، إلا أن بعض الباحثين مع الأسف وظفوها بصورة آلية، حتى أن بعضهم ألفوا كتباً يصنفون فيها الصحابة إلى يمين ويسار واشتراكي ورأسمالي، فيجب الحذر من التقليد الأعمى، وفي ذلك يكمن خطر الذوبان في الفكر الجاهلي الغربي، والضياع وسط مصطلحاته الكثيرة التي تفقدنا ذاتيتنا المستقلة، وينبغي استعمال المصطلحات الإسلامية؛ لأنها ذات دلالة واضحة و محددة، ولأنها معايير شرعية لها قيمتها في وزن الأشخاص

والأحداث.

خصائص الحضارة الإسلامية:

لا بد ونحن نريد استعراض بصورة عملية بعض مصادر التاريخ الإسلامي أن نمهد لمفهوم الحضارة الإسلامية، وأبرز خصائصها.

فالحضارة هي الجهد الذي يُقدَّم لخدمة الإنسان في كل نواحي حياته، أو هي التقدم في المدنية والثقافة معًا، فالثقافة هي التقدم في الأفكار النظرية مثل القانون والسياسة والاجتماع والأخلاق وغيرها، وبالتالى يستطيع الإنسان أن يفكر تفكيرًا سليمًا، أما المدنية فهي التقدم والرقى في العلوم التي تقوم على التجربة والملاحظة مثل الطب والهندسة والزراعة، وغيرها. وقد سميت بالمدنيَّة؛ لأنها ترتبط بالمدينة، وتحقق استقرار الناس فيها عن طريق امتلاك وسائل هذا الاستقرار، فالمدنية تهدف إلى سيطرة الإنسان على الكون من حوله، وإخضاع ظروف البيئة للإنسانولابد للإنسان من الثقافة والمدنية معًا؛ لكي يستقيم فكر الأفراد وسلوكياتهم، وتتحسن حياتهم، لذلك فإن الدولة التي تهتم بالتقدم المادي على حساب التقدم في مجال القيم والأخلاق، دولة مدنيَّة، وليست متحضرة؛ ومن هنا فإن تقدم الدول الغربية في العصر الحديث يعد مدنية وليس حضارة؛ لأن الغرب اهتم بالتقدم المادي على حساب القيم والمبادئ والأخلاق، أما الإسلام الذي كرَّم الإنسان وأعلى من شأنه، فقد جاء بحضارة سامية، تسهم في تيسير حياة الإنسان.

والحضارة الإسلامية هي ما قدمه الإسلام للمجتمع البشرى من قيم ومبادئ، وقواعد ترفع من شأنه، وتمكنه من التقدم في الجانب المادي وتيسِّر الحياة للإنسان، ونجد أن الميزة التي تمتعت بها هذه الحضارة هي جعل الفرد هو اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وإذا صلح صلح المجتمع كله، وأصبح قادرًا على أن يحمل مشعل الحضارة، ويبلغها للعالمين، ومن أجل ذلك جاء الإسلام بتعاليم ومبادئ تُصْلِح هذا الفرد، وتجعل حياته هادئة مستقرة، وأعطاه من المبادئ ما يصلح كيانه وروحه وعقله وجسده، وبعد إصلاح الفرد يتوجه الإسلام بالخطاب إلى المجتمع الذي يتكون من الأفراد، ويحثهم على الترابط

والتعاون والبر والتقوى، وعلى كل خير؛ لتعمير هذه الأرض، واستخراج ما بها من خيرات، وتسخيرها لخدمة الإنسان وسعادته، وقد كان آباؤنا على قدر المسئولية، فحملوا هذه الحضارة، وانطلقوا بها يعلِّمون العالم كله ويوجهونه.

أما أبرز ما يلفت نظر الدارس لـ الحضارة الإسلامية أنها تميزت بالخصائص التالية:

١. **أنَّها قامت على أساس الوحدانية المُطلقة في العقيدة؛** فهي أول حضارة تنادي بعبادة الله الواحد الذي لا شريك له في حُكمه وملكه، وهو وحده الذي يُعبد، وهو وحدَه الذي يُقصد؛ وهو الذي يُعِزُّ ويُذِل، ويعطي ويَمنع، وما من شيء في السَّموات والأرض إلا وهو تحت قُدرته وفي مُتناول قبضته، هذا السُّمُوُّ في فَهم الوحدانية كان له أثرٌ كبيرٌ في رفع مُستوى الإنسان، وتحرير الجماهير من طُغْيَان الملوك والأشراف والأقْوياء، وتوجيه الأنظار إلى الله وحدَه، وهو خالقُ الخلق وربُّ العالمين، كما كان لهذه العقيدة أثرٌ كبيرٌ في الحضارة الإسلامية، تكاد تتميَّز به عن كل الحضارات السَّابقة واللاحِقَة، وهو خُلُوُّها من كلِّ مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحُكْم والفن والشِّعر والأدَب.

٢. **أنَّها إنسانيَّة النزعة والهدف،** عالمية الأفق والرسالة؛ فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني على الرغم من تَنوُّع أعراقه ومنابته ومواطنِه، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: ١٣].

إنَّ القرآن حين أعلَن هذه الوَحْدة الإنسانية العالميَّة على صعيد الحق والخير والكرامة ــ جعل حضارته عقدًا تنتظم فيه جميعُ العبقريات للشعوب والأمم، التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلاميَّة؛ ولذلك كانت كلُّ حضارة تستطيع أنْ تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمَّة واحدة؛ إلا الحضارة الإسلامية، فإنَّها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صَرحها من جميع الأمم والشعوب، من أمثال: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري والخليل بن أحمد وسيبويه وأمثالهم مِمَّن اختلفت أصولهم، وتباينت أوطانهم

ــ ليسوا إلا عباقرةً قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروَع نتاج الفِكر الإنساني السليم.

٣. **أنها جعلت للمبادئ الأخلاقيَّة المحلَّ الأول في كلِّ نظمها**، ومُختلف ميادين نشاطها، وهي لم تتخلَّ عن هذه المبادئ قطُّ، ولم تجعلها وسيلة لِمنفَعة دولة أو جماعة أو أفرادٍ، في الحُكم، وفي العلم، وفي التشريع، وفي الحرب، وفي السلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة؛ لقد رُوعِيت المبادئ الأخلاقية تشريعًا وتطبيقًا، وبلغت في ذلك شأوًا ساميًا بعيدًا لم تبلغْه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارًا تستحق الإعجاب، وتجعلها وحدَها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسانية سعادةً خالصةً لا يشوبها شقاءأنَّها تُؤمن بالعلم في أصدق أصوله، وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فهي خاطبَت العقل والقلب معًا، وأثارت العاطفة والفِكر في وقت واحد، وهي مَيْزة لم تشاركها فيها حضارة في التاريخ، وسِرُّ العجب في هذه الخِصِّيصة من خصائص الحضارة الإسلامية: أنَّها استطاعت أن تنشئ نظامًا للدولة قائمًا على مبادئ الحقِّ والعدالة، مرتكزًا على الدِّين والعقيدة، دون أن يُقيم الدين عائقًا من دون رقيِّ الدولة واطراد الحضارة؛ بل كان الدين من أكبر عوامل الرُّقي فيها، فمن بين جدران المساجد في بغداد ودمشق والقاهرة، وقرطبة وغرناطة ــ انطلقت أشعة العلم إلى أنْحاء الدنيا قاطبة.

٤. **التسامح الديني**، الذي لم تعرفه حضارة مثلها قامت على الدِّين؛ إن الذي لا يؤمن بدين ولا بإله لا يبدو عجيبًا إذا نظر إلى الأديان كلِّها على حدٍّ سواء، وإذا عامل أتباعها بالقسطاس المُستقيم؛ ولكنَّ صاحب الدين الذي يؤمن بأنَّ دينه حق، وأن عقيدته أقوم العقائد وأصحها، ثم يتاح له أن يحمل السيف، ويفتح المدن، ويستولي على الحكم، ويجلس على منصة القضاء، ثم لا يحمله إيمانُه بدينه، واعتزازُه بعقيدته على أنْ يجورَ في الحكم، أو أن ينحرف عن سنن العدالة، أو يحمل الناس على اتِّباع دينه، إن رجلاً مثل هذا لعجيب أن يكون في التاريخ، فكيف إذا وُجد في التاريخ حضارةٌ قامت على

الدِّين، وشُيِّدت قواعدُها على مبادئه، ثُمَّ هي من أشد ما عرف التاريخ تسامحًا وعدالة ورحمة وإنسانية؟!

٥. **الحثُّ على العمل وعمارة الأرض،** وإثراء الحياة في شتَّى الميادين بكل ما هو مفيد، حتى جعل صاحبَه يرتقي لمرتبة العبادة إذا ابتغى بعمله وجهَ الله ـ جل جلاله ـ فشهِدت الحضارة الإسلامية تنمية كبيرة في التجارِة، من خلال: الضرب في الأرض، وتقوية الاقتصاد بالزكاة، وإنشاء بيت المال، واستصلاح الأراضي والإنتاج الزراعي؛ فقال: «**ما مَن مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة**»[(١)]، وقال: «**مَن أحيا أرضًا ميتةً، فهي له**»[(٢)]، والأمثلة كثيرة في المجالات المختلفة.

٦. **الجهاد بهدفِ إفراد الله بالعبادة،** وتحرير البشريَّة من عبوديَّة المادة والعظماء والطواغيت، ومن طغيان الحُكَّام، والظُّلم الاجتماعي، ودحْر الفساد والمفسدين، ونَشْر الحرية المنضبِطة، وإرساء قيم الحقِّ؛ ولذا برزت شخصياتٌ وأعمال وتضحيات للمسلمين لا مثيلَ لها في تاريخ البشرية؛ قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١].

٧. **صلاحيَّتها لكل مكان وزمان،** وعدم حَصْرها في منطقة محددة أو حِقبة زمنية أو فئة من الناس؛ فهي حضارةٌ استفادت من الحضارات التي سبقتها أو عاصَرَتْها، لكنها أعطَتْهم أكثرَ مما أخذت منهم؛ قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].



(١) البخاري (٢٣٢٠).

(٢) أبو داود (٣٠٧٣).

.المبحث الثالث:

عرض لبعض المصادر في التاريخ الإسلامي

السيرة النبوية:

تأتي كتابة السيرة النبوية في الأهمية بعد كتابة السنة النبوية أي الحديث النبوي، ولعل أول من بدأ بالكتابة لحياة الرسول الكريم ﷺ هو عروة بن الزبير (ت٩٢ هـ)، ثم أبان بن عثمان بن عفان(ت١٠٥هـ)، ثم وهب بن منبه (ت١١٠هـ)، ثم شرحبيل بن سعد (ت١٢٣هـ) ثم ابن شهاب الزهري (١٢٤هـ)، ثم بعد ذلك تنامى الاهتمام بكتابة السيرة النبوية إلى درجة الإتقان والوضوح والشمول، وكان على رأس ذلك الجيل الفقيه محمد بن إسحاق (ت١٥هـ)؛ لذلك يعد ابن إسحاق من أوثق من كتب في سيرة المصطفى ﷺ، وقد ضاع قسم كبير من كتابه، إلا أن ابن هشام (ت٢١٨هـ) قدَّم لنا عملاً جليلاً بروايته للسيرة من خلال كتاب «المغازي» لابن إسحاق، فقدمها لنا مشروحةً ومهذبة ومنقحة، وهي السيرة المعروفة بسيرة ابن هشام.

وهناك دراسات كثيرة استعرضت مصادر السيرة النبوية، ولكننا نود الاشارة إلى أبرز هذه المصنفات.

١. لقرآن الكريم وكتب التفسير.
٢. كتب الحديث الشريف
٣. كتب الشمائل والفضائل
٤. كتب الصحابة
٥. كتب التاريخ
٦. كتب الأدب واللغة

زاد المعاد في هدي غير العباد:

مؤلفه هو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، المعروف بابن قيم

الجوزية (ت٧٥١هـ)، وهو أشهر من أن يعرف به، والذي يهمنا في هذا المقام كتابه (زاد المعاد في هدي خير العباد وهو خمسة أجزاء على تقسيم المؤلف

الجزء الأول فقد بيَّن فيه ابن القيم الجوزية نسب النبي ﷺ، وأحواله الخاصة وعبادته.

أما الجزء الثاني؛ فقد خصصه ابن القيم عن: هدي النبي ﷺ في العبادات والعادات.

وخصص الجزء الثالث: في الجهاد والغزوات، والوفود التي قدمت إلى النبي ﷺ في المدينة المنورة وكيفية استقباله لهم، والكتب التي وجهها إلى الملوك والزعماء المعاصرين له يدعوهم فيها إلى الإسلام.

أما الجزء الرابع: ففي أمراض القلوب والأبدان، وأساليب الوقاية من الأمراض، وطرق علاجها، والعادات الصحية، في المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والنوم واليقظة والرياضة، ومعاشرة الزوجة.

في الجزء الخامس: أقضيته ﷺ وأحكامه، في الجنايات، والغنائم، والمعاهدات والجزية، وقضائه في النكاح وتوابعه، والطلاق وآثاره ومتعلقاته، والبيوع وما يجوز فيها وما لا يجوز.

ومن عجيب ما ذكره ابن القيم رحمه الله في مقدمته لكتابه هذا أنه صنف هذا أثناء بعض أسفاره، فيقول: «وهذه كلمات يسيرة لا يستغني عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهديه، اقتضاها الخاطر المكدود على عجره وبجره، مع البضاعة المزجاة التي لا تنفتح لها أبواب السدد، ولا يتنافس فيها المتنافسون مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلب بكل واد منه شعبة، والهمة قد تفرقت شذر مذر، والكتاب مفقود»[(١)].

ويعكس الكتاب ملامح ابن القيم في كل كتبه فهو يذكر الحادثة أو الواقعة من هديه ﷺ، ثم يستشهد عليها بالنصوص، ويشحذ لها من الروايات الواردة

(١) زاد المعاد: ١/ ٦٩.

فيها ويمحضها قبل الأخذ بها، ويعرض آراء الفقهاء ثم يرجع ما يؤيده الدليل الصحيح، ويشير عند اختلاف الروايات إلى أن ذلك من أسباب اختلافهم، ويذكر معتمد كل فقيه من تلك الروايات.

وكان من منهجه رحمه الله أن يعرض للأخبار ويوفق بينها وينقدها ويبين ضعفها وصحتها، ويعمل النظر في الروايات المتعددة وأسانيدها، كما بيّن بعض الأوهام التي وقع فيها بعض أصحاب السير أو المؤلفين[(١)].

وقد استوعب رحمه الله في كتابه هذا هديه ﷺ في شؤونه الخاصة والعامة، واستوفى أطوار حياته وما صاحبها من أحداث، وما لابسها من أمور يجدر بكل مسلم أن يقف عليها، ومن خلال كتاب ابن القيم هذا ظهر لنا نوع جديد من الكتابة في السيرة النبوية، اصطلح على تسميته عند المعاصرين بـ«فقه السيرة»، فهو يعد بامتياز مؤسس هذا العلم المهم في حياة المسلم.

إن المطالع لهذا الكتاب يجد كيف كان المؤلف رحمه الله يستنبط الأحداث الفقهية والشرعية من أحداث السيرة النبوية، الأمر الذي لم نجده عند من سبقه من العلماء وكتاب السيرة النبوية على كثرتهم، فهو يذكر بعض الحكم و الغيات المحمودة التي كانت في وقعة أحد، فيقول: «منها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول، وتنازعهم وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشد حذرا ويقظة، وتحرزا من أسباب الخذلان.

ومنها: أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائما دخل

(١) فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها: ص ١٥٩.

معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائما لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق، وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة»[(١)].

ويستمر بذكر هذه الفوائد والدرر حتى يبلغ بها إحدة وعشرين فائدة.

كما يهتم كثيراً بالتوفيق بين الروايات التاريخية والحديثية، فإن كان هناك مجالٌ للتوفيق بينها وفق، وإن لم يتح له ذلك بدأ بنقد الضعيف منها، بالرجوع إلى قواعد المحدثين في نقد الرواية، وقد جعل ذلك كتابه من أوثق ما كتب بالسيرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

العواصم من القواصم:

مؤلف هذا الكتاب هو: القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي (ت ٥٤٣هـ)، وهو من كبار علماء الأندلس، ووالده من تلامذة ابن حزم الظاهري، وكان هو من حفاظ الحديث وله رحلة وصل بها إلى المشرق ثم عاد إلى الأندلس حيث قصده الطلاب من كل حدب وصوب وتحول منزله إلى جامعة، ومن ابرز تلامذته القاضي عياض مؤلف «الشفا».

أما الكتاب الذي نحن بصدده «العواصم من القواصم»؛ فهو كتاب حافل يناقش فيه من خالف جمهور المسلمين في باب العقائد خاصة، ويناقشهم نقاشاً علمياً، وهو بذلك يكون قد أوجد لنا مبدأ الرد العقلي على من اعترض بالنقلي وهو لا يقر به.

وقسم ابن العربي كتابه إلى مواقف ـ أو كهذا يسميها ـ:

الموقف الأول: في بيان قول من أنكروا الحقائق المحسوسة

الموقف الثاني: ما يفاض على العبد من عرفان يستغرق الأدلة والبيان

الموقف الثالث: في قول طائفة لا معلوم إلا المحسوس

(١) زاد المعاد: ٣/١٩٦.

الموقف الرابع: في قزل إن العلم لا يؤخذ إلا من المعصوم

وفي هذا الموقف الأخير يبحث عدة أمور، والذي يهمنا أنه يتكلم عن:

- المظالم المكذوبة على عثمان.
- الحرب بين أهل العراق والشام والرد على ملابسات الحرب.
- التحكيم وخلافة علي.
- الرد على الفرق التي قالت بالإمامة.

وغيرها، والذي يميز هذا الكتاب عن الكتب التي سبقته: أن غالب مادته العلمية ـ خاصة المتعلقة منها بتلك الفترة الحرجة من التاريخ الإسلامي ـ تناقش تلك الأحداث نقاشاً علمياً قلما نجده في كتاب سبقه أو حتى تلاه، ويبدو الحس النقدي المعتمد على العقيدة الإسلامية واضحاً في هذا الكتاب، بل يمكن أن نقول أن هذا الكتاب يشكل بحد ذاته نموذجاً يحتذى في كتابة تاريخ تلك الحقبة خاصة، والتاريخ الإسلامي عامة.

ولنأخذ نموذجاً لمسألة من المسائل التي بحثها المؤلف في كتابه، مثل رده على من طعن على عثمان رضي الله عنه بأنه نفى أبا ذر:

«وأما نفيُه أبا ذرّ إلى الرَّبذة فلم يفعل، كان أبو ذر زاهدا، وكان يقرّع عمال عثمان، ويتلو عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤]، ويراهم يتسعون في المراكب والملابس حين وجدوا، فينكر ذلك عليهم، ويريد تفريق جميع ذلك من بين أيديهم، وهو غير لازم قال ابن عمر وغيره من الصحابة: إن ما أديت زكاته فليس بكنز، فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام فخرج إلى المدينة، فاجتمع إليه الناس، فجعل يسلك تلك الطرق، فقال له عثمان: لو اعتزلتَ، معناه: إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإن للخلطة شروطا وللعزلة مثلها ومن كان على طريقة أبي ذرّ فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، أو يخالط ويسلِّم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشريعة، فخرج إلى الربذة زاهدا فاضلا، وترك جلة فضلاء، وكل على خير وبركة وفضل، وحال أبي ذر أفضل، ولا

تمكن لجميع الخلق، فلو كانوا عليها لهلكوا فسبحان مرتب المنازل»[١].

والملاحظة الجديرة بالوقوف هنا إلى أن ابن العربي وقف كثيراً عند نقد المتن، ويمكن القول أن عنايته بالمتن كانت بمستوى عنايته بالإسناد، ويراد بدراسة المتن دراسة النص من جوانب متعددة، منها ما يهدف إلى التأكد من صحة النص بأن لا يخالف الأصول الشرعية والقواعد المقررة، أو يخالف طبيعة العصر المتحدَّث عنه وأعراف الناس وعاداتهم وقيمهم، أو يخالف طبائع الأشياء والمعلومات التاريخية المستفيضة، أو يشمل على أمر منكر أو مستحيل، إلى غير ذلك من الأمور ومنها ما يهدف إلى فهم النص وفقهه، سواء فهم أحكامه ودلالتها أو فهم لغته وألفاظه

وهذا يعني أن ابن العربي نظر إلى متن الرواية التاريخية كما نظر إلى سنده، وبقدر تعلق الأمر بالأول فإن النقد هنا يستند إلى شواهد أخرى يؤتى بها لتعارض ما قاله المعارض، بل ربما نبه إلى ضرورة الدقة في رواية المتن والتحقق من ألفاظه، وعدم تفسير الألفاظ وفقاً لعصر المؤرخ، بل يجب وضعها في عصرها، مثل قوله في الرواية الآنفة اعتزل الناس إذ فسرها المغرضون بالنفي الحسي، ورد عليهم ابن العربي بتفسيرها بالمعنوي، وهو الأوجه لها والأصوب

وهذا هو المنهج الصحيح لتخريج ما شجر بين الصحابة، بل نجد روايات عديد مروية عن الصحابة أنفسهم في هذا الباب، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين سئل عن الجَدَّة هل ترث؟ فأجابه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنها ترث السدس، فطلب منه أن يأتيه بشاهد، فشهد محمد بن مسلمة رضي الله عنه.

وكذلك اعتذر عمر بن الخطاب من أُبَي بن كعب عندما حدثه بحديث، فطلب منه أن يأتيه ببينة على ما يقوله، فلما أتاه بذلك قال له: أما إني لم أتهمك، ولكني أحببت أن أتثبت.

وفيما استدركته عائشة رضي الله عنها على الصحابة أنها سمعت حديث

---

(١) العواصم من القواصم: ص ٧٦.

عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله عليه**»، فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ أن الله يعذب المؤمنين ببكاء أحد، ولكن قال: إن الله يزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، وقالت: حسبكم القرآن: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النّجْم: ٣٨][(١)].

تاريخ بغداد:

يعد تاريخ بغداد من أهم واكبر مؤلفات الخطيب البغدادي أحمد بن علي ابن ثابت (ت٤٦٣هـ) وأكثرها شهرة على الإطلاق، ونال من أجله صيتاً ذائعاً لما تميز به من ميزات عظيمة، ويعد أول كتاب تناول تاريخ علماء بغداد منذ تأسيسها إلى عصره، وتظهر أهمية الكتاب بما حواه من تراجم بلغت حوالي (٧٨٣١) ترجمة، شملت هذه التراجم العلماء من فقهاء ومحدثين، فضلاً عن رجال الدولة من خلفاء ووزراء، ولقد وصف الدكتور العمري تاريخ بغداد بـ«تاريخ النخبة»؛ لأن الخطيب تناول في كتابه العلماء البارزين وأصحاب الكفاءات وخاصة العلماء الذي ينتمي إلى طبقتهم.

وكما تجلَّت أهميته في المقدمة التي وصف بها مدينة بغداد منذ تأسيسها حيث بين فيها مراحل بنائها من اختيار المكان وتخطيطه والعاملين فيها واعتمد في ذلك على الذين سبقوه مثل اليعقوبي والطبري وابن طيفور وغيرهم.

وتكمن أهمية هذا المؤلف في توضيح الجوانب الحضارية لمدينة بغداد حيث بين في ثنيات كتابه مظاهر الحياة الثقافية والتعليمية المتمثلة في بيان طرائق التدريس ومناهج العلماء ومقاييسهم وعلاقتهم مع تلاميذهم ومعرفة المدارس التي ظهرت في بغداد و بين المناظرات العلمية بين العلماء والحلقات الدراسية في المساجد.

وأظهر الكتاب أهمية بغداد في العالم الإسلامي ومكانتها العلمية الكبيرة إذ وضح كثرة ورود الطلاب إلى بغداد لطلب العلم من علمائها حتى ورد في

(١) مسلم (٩٢٩).

الأثر أن مناقشة دارت بين عالمين فسأل أحداهما الآخر هل زرت بغداد فقال: لا، فقال له أنك لم تر الدنيا، كما بين الكتاب مدى الاتصال الفكري والتعاون بين بغداد ومدن العالم الإسلامي وتكمن أهمية كتاب تاريخ بغداد العظمى في اهتمامه بمجال الحديث إذ ترجم لحوالي خمسة آلاف محدث ويظهر ذلك انه وضعه لخدمة علم الحديث وتظهر أهميته بالتعريف بالكثير من الكتب المفقودة في مجالات مختلفة وذكر الكثير من الكتب التي لم يذكرها ابن النديم في «الفهرست».

أوضح ذلك في مقدمة الكتاب أن تاريخه يشمل ما يأتي: «تسمية الحلفاء والأشراف والكبراء والقضاة والفقهاء والمحدثين والقراء والزهاد والصلحاء والمتأدبين والشعراء من أهل مدينة السلام الذين ولدوا بها وبسواها من البلدان ونزلوها وذكر من انتقل عنها ومات ببلدة غيرها ومن كان بالنواحي القريبة منها ومن قدمها من غير أهلها»[١]، وبذلك نفهم أن الخطيب ترجم لعلماء بغداد الذين ولدوا بها وتوفوا بها وأيضا العلماء الذين أتوا من مدن مختلفة وسكنوا بغداد او حتى توفوا بها والعلماء الذين ولدوا فيها ثم رحلوا عنها وكذلك ترجم لأهل المناطق القريبة منها مثل سامراء وغيرها، وأيضاً العلماء الذين قدموا بغداد ثم رحلوا عنها، ولم يذكر الخطيب في تاريخه من محدثي الغرباء الذين قدموا إلى بغداد ولم يحدث بها ويروي العلم فأنه أهملهم وذلك لكثرة أسمائهم وتعذر احصاء عددهم.

واعتمد الخطيب في مادة تاريخه على المؤلفات التي سبقت تأليفه وخاصة كتب تراجم المحدثين وكتب تراجم الخلفاء والأدباء والشعراء وكتب الحوليات وعمل الخطيب الانتقاء من هذه الكتب لأنه وجد لديه مادة واسعة وكان الغرض من هذا الانتقاء هو الحذر من تضخم كتابه وكذلك عمل الخطيب بتخريج أحاديث المترجمين فاستخدم كتب الحديث ومعاجم الشيوخ.

حاول الخطيب أن يقدم ترجمة كاملة ومختصرة لمن ترجمة له تتضمن هذه

(١) تاريخ بغداد: ١/ ٢٢٧.

اسمه ونسبه والشهرة التي يعرف بها وشيوخه وتلاميذه وأراء العلماء فيه ويبين رأيه فيه ويذكر له أن كان عنده شعر أو رواه وبين مكان وسنة ولادته ومكان وسنة وفاته وفي أي مقبرة دفن.

وعمل الخطيب على نقد وتمحيص الروايات التي بين يديه وبيان أوهام العلماء والمصنفين السابقين وترجيح بين الروايات المتعارضة التي تتعلق مثلا بتاريخ الولادة والوفاة ومكانهما وغيرها من الأمور وتميز الخطيب بدقة نقله إذ ينقل النص كما وجده وبعدها يعقب على النص ويصححه[(١)].

و«تاريخ بغداد» عبارة عن موسوعة ضخمة في تراجم العلماء وذكر أخبارهم وفضائلهم ومؤلفاتهم، وهناك تجاهل واضح من قبل مصنفه لتغطية موسوعة لرجالات السياسة والقادة العسكريين والأداريين، وهذا يعطي للباحث انطباعاً بأن القيمة العلمية لهؤلاء العلماء فاقت قيمة معاصريهم من ذوي المناصب الدنيوية، وهذه هي التي تعكس لنا منهجية التصنيف في كتب الرجال والطبقات في عصور الازدهار الإسلامي، فلم تكن النواحي السياسية تشكل جل اهتمامهم، بل ربما تأتي في ذيل اهتماماتهم.

وقد جمع د. محمد بن عبد الله الهبدان روايات تاريخ بغداد للخطيب في ديوان كبير تجاوزت عدد صفحاته (٨٠٠ص) قسمت تقسيماً موضوعياً، وهذا يدل على قيمة هذا الكتاب في توثيق كلام العلماء والمحدثين وذكر فضائلهم، ومن المهم تقديم هذه المادة العلمية الغنية والغزيرة للمسلمين للانتفاع بها في مجال التربية والتزكية، والاتساء بخلق سلف هذه الأمة.

تاريخ الإسلام للذهبي:

مصنفه أبو عبد الله محمد بن عثمان بن أحمد الذهبي توفى عام (٧٤٨هـ)، علم من أعلام الحضارة الإسلامية، مع غزارة التأليف والتصنيف في مختلف الفنون.

أما فيما يتعلق بكتابه «تاريخ الإسلام»؛ فقد جعل الذهبي كتابه في واحد

(١) د. أكرم العمري، موارد الخطيب البغدادي: ص ٨٩- ٩١.

وعشرين مجلداً، راعى فيها أن تكون متناسقة من حيث عدد أوراقها، ولم يراعِ فيها أية ناحية تنظيمة، ولذلك لم يلتزم النساخ فيما بعد بتجزئة المؤلف، قال رحمه الله في تقديمه لكتابه هذا: «فهذا كتابٌ نافع إن شاء الله ـ ونعوذ بالله من علمٍ لا ينفع ومن دعاءٍ لا يُسمع ـ جمعته وتعبتُ عليه، واستخرجته من عدة تصانيف يعرف به الإنسان مُهمَّ ما مضى من التاريخ، من أول تاريخ الإسلام إلى عصرنا هذا؛ من وفيات الكبار من الخلفاء، والقرَّاء والزُّهّاد والفقهاء، والمحدثين والعلماء، والسلاطين والوزراء، والنحاة والشعراء ومعرفة طبقاتهم وأوقاتهم وشيوخهم وبعض أخبارهم، بأخصر عبارةٍ وألخص لفظ وما تمّ من الفتوحات المشهورة والملاحم المذكورة، والعجائب المسطورة، من غير تطويل ولا إكثار ولا استيعاب ولكن أذكر المشهورين ومن يُشْبِههم، وأترك المجهولين ومن يُشْبِههم وأشير إلى الوقائع الكبار، إذ لو استوعبت التراجم والوقائع لبلغ الكتاب مائة مجلّدة بل أكثر، لأنّ فيه مائة نفس يمكنني أن أذكر أحوالهم في خمسين مجلداً»[١].

وتناول كتابه الحواث والتراجم ابتداء من السنة الأولى للهجرة حتى سنة (٧٠٠هـ)، ووضع خطة عامة للكتاب قسمه بوجهها إلى وحدات زمنية أمدُها عشر سنوات، أما التراجم فاتبع فيها تنظيمات مختلفة، ولما كانت «الطبقة» هي الأساس الذي قامت عليه الخطة العامة للكتاب، فقد أصبح لا بد من دراسة تنظيم الكتاب استناداً غليها، وتبيان مفهومها مقارنة بكتبه الأخرى وبمفهومها السابقين عند المؤلفين

جعل الذهبي الطبقة عشر سنوات في تاريخ الإسلام، فتألف كتابه من سبعين طبقة، ورتب الحواث والوفيات حسب في كل سنة منفصلة عن الأخرى، فقد رتب الحوادث على السنين مبتدئاً بالسنة الأولى للهجرة ومنهياً بسنة (٧٠٠ هـ)، وجعل حوادث كل سنة منفردة بنفسها، ووضع عنواناً خاصاً، وكان يفصل الحادثة عن الأخرى في السنة الواحدة باستعمال لفظة: «وفيها» أو

(١) تاريخ الإسلام: ١/ ٥.

يذكر الشهر الذي وقعت فيه نحو قوله: «وفي المحرم أو وفي رمضان» وربما عيَّن اليوم، لاسيما في القسم الأخير من كتابه[١].

إن عدم توفر تواريخ وفيات المترجمين في الفترة الأولى من الإسلام بصورة دقيقة من جهة، وقلتهم من جهة أخرى دفعت الذهبي إلى أن يدمج الحوادث والتراجم في العقود الأربعة الأولى من (تاريخ الإسلام)، بل لم يظهر لفظ «الطبقة» في العقود الثلاثة الأولى إطلاقاً، ورغم أن الكتاب صمم بالأساس لذكر تاريخ الإسلام كما يوحي عنوانه بذلك ألا إن اهتمام الذهبي كان ينصب دائماً على التراجم، وذلك يعكس مفهومه الأصلي للتاريخ، لذلك احتلت التراجم حيزاً كبيراً من تاريخه، وقد جاء هذا التقصير النسبي في الحوادث بسبب عد استقصاء الذهبي لما ذكرته المصادر من حوادث واقتصاره على البعض منها، وكان يقول: «وهذه نبذة مما جرى في هذه الطبقة من الحوادث»[٢].

أما أهم مميزات منهج الذهبي في كتابه «تاريخ الإسلام»[٣]. :

١.أن الذهبي انتقى من الحوادث ما رآه حرياً بالذكر جديراً بالتدوين، فذكره في تاريخه.

٢. عنى العناية البالغة بتكوين الدولة الإسلامية باعتبارها النموذج الأكمل في الحكم والتنظيم والعدل.

٣. اختفاء الموازنة الزمانية في الحوادث بين منطقة وأخرى ومن عصر لآخر ومن سنة إلى سنة، ويعود ذلك بنظرة الذهبي القائل بضرورة تقويم الأحداث التاريخية وبيان أهميتها.

٤. لم يفرق الذهبي بين بقاع البلاد الإسلامية، بل جعلها جسداً واحداً وحرص على تكوين موازنة مكانية رغم سعة الأرض التي يغطيها التاريخ.

---

(١) بشار عواد معروف، منهج الذهبي في تاريخ الإسلام: ٢٨٥.

(٢) تاريخ الإسلام: ١٤/ ٦٥٥.

(٣) بشار عواد، مصدر سابق: ص ٤٧٢.

٥. اجتهد الذهبي في أن يقدم لنا ترجمة متكاملة ومختصرة في آن واحد.

والأمر الجدير بالذكر هنا أن الذهبي ـ باعتباره رجل حديث من الطراز الأول ـ كانت له عناية فائقة بالنقد وعده جزاً أساساً من منهجه في الدراسة التاريخية، ويعود ذلك إلى طبيعة تكوينه الفكري المتصل بدراسة الحديث النبوي الشريف رواية ودراية.

البداية والنهاية:

كتاب مشهور في التاريخ الحولي، مصنفه: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، قال عنه الحافظ ابن حجر: «أخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه، وامتحن بسببه، وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته»[١].

يتمثل منهج ابن كثير باختصار كما بينه رحمه الله في مقدمة «تاريخه»، ثم أعاده مراراً وتكراراً في شتى فصول كتابه، بمناسبات فحص الروايات، و كشف زيف الأخبار الإسرائيلية ونقدها، ولكنه منهج يدور حول الإسرائيليات، فلا يمكن تطبيقه إلا في قسم المبتدأ، حيث كثرت فيه الروايات الإسرائيلية والأخبار الموضوعة، لجهل الناس بأحوال الأمم الماضية، و دخول أهل الكتاب في الإسلام. فكانوا سبباً في نشر ما توارثوه من أخبار تشبه الأساطير الخرافية والقصص الشعبية.

هذا بالنسبة لقسم المبتدأ من «البداية والنهاية»، أما بعد ذلك فلم يحدد لنا ابن كثير رحمه الله منهجاً سار عليه، واتبعه منذ السيرة النبوية إلى نهاية كتابه، و لكن من يتتبع تاريخ ابن كثير يجد أن مؤرخنا اتبع في كل قسم من أقسام كتابه منهج وترتيب المؤرخين القدامى الذين استقى منهم مواد تاريخه، وقد اختار مصادر كتابه التاريخي من بين المؤرخين وأهل السير الذين اتصفوا مثله برسوخهم وعلو كعبهم في العلوم الدينية وخاصة علم الحديث.

ففي قسم «السيرة النبوية» اهتدى ابن كثير بطريقة ابن إسحاق وابن هشام

(١) الدرر الكامنة: ١/ ٤٤٥.

والسهيلي، كما تأثر في ذكر حوادث القرون الأولى من تاريخ الإسلام بتاريخ الطبري وابن الأثير اللذين جعلهما مثلاً له و نموذجاً سار عليه، واتبع طريقة ابن الجوزي ومن يمثل مدرسته في تاريخ القرون المتأخرة، كما تأثر بهم تأثيراً بالغاً في تفصيل التراجم والتوسع فيها وتطويلها وفي ذكر الأخبار العلمية والثقافية والاهتمام بالظواهر الخارقة والغرائب النادرة.

أما في تاريخ عصره؛ فقد سجل ما رآه بعينه، وما سمعه بأذنه وما اطلع عليه من الوثائق الرسمية والرسائل الشخصية وما تلقاه شفهياً من المعلومات، وقد غلب على ابن كثير منذ أول كتابه إلى نهاية السيرة النبوية أثر الحديث وأسلوبه ومنهجه، فالتزم بالرواية بالأسانيد ونقدها، أو بيان درجة الحديث دون نقد السند للحكم على الأحاديث والروايات على طريقة علماء عصره، وقام بمجهود كبير وسعي مشكور في تحقيق الأخبار وتمحيص الروايات ونقد الأسانيد وفحص بعض المتون وكشف زيف الغرائب والمناكير.

ولكن الاعتماد الأول على سلامة السند في نقد الأحاديث والأخبار ـ وهو الغالب عليه كمحدث حافظ ـ سمح أن يدخل في تاريخه بعض الروايات الضعيفة وأخبار واهية، وخاصة في أخبار الماضين، وحوادث الجاهلية وهواتف الجان وما جاء في دلائل النبوة ومن بعض الأخبار التي تناقض العقل والسنن الكونية وليست لها قيمة تاريخية أو سند علمي أو اعتبار ديني في الشريعة.

والحقيقة أن ابن كثير كان يشعر في كثر من الأحيان أن ما يرويه هو من هذيانات المؤرخين وخرافاتهم. لكنه يذكره اتباعاً للمؤرخين السابقين للرد والتنبيه عليه. ويقدم ابن كثير عذره في مثل هذه الأماكن قائلاً: «لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس، لما تعرضنا لسقاطتها وركاكتها ومخالفتها للمعقول والمنقول»[١]. وهذا يدل على حبه للجمع والاستقصاء، فيجمع في كل موضوع يطرقه جميع ما عثر عليه بوسائله،

---

(١) البداية والنهاية: ١/ ١١٤.

فكان هذا هو السبب في تجاوز حدود السيرة في البداية والنهاية، حيث وقف له ابن كثير نحو ثلث كتابه التاريخي.

وقد اعتمد ابن كثير في عرض المادة التاريخية على التلخيص والاختصار والنقل بالمعنى عن مصادره، وخاصة في القسم الخاص بتاريخ الإسلام، وذلك لأنه لم يكن أمامه مجال في إرخاء العنان لقلمه، ونظراً لطول الحقبة التي كان عليه أن يجمع تاريخها، وتعدد الموضوعات التي اهتم بذكرها، وتنوع المصادر وكثرتها، فاستوعب ابن كثير ما جاء في الحوادث عند المؤرخين قبله، ثم سردها ملخصاً على لسانه في سياق واحد متماسك مع الإشارة والإحالة على مصادره التي استقى منها معلوماته، وذلك عند الخلاف والرد والإنكار أو التأييد والاستشهاد والاعتضاد.

وإذا أتينا إلى تقييم تاريخ ابن كثير رحمه الله ـ ولسنا أهلاً لذلك ـ نقول وبالله التوفيق.

بذل ابن كثير جهداً كبيراً في إبعاد الإسرائيليات والموضوعات والأساطير الخرافية والقصص الشعبية القديمة التي دخلت عند المؤرخين المسلمين في قسم المبتدأ وقصص الأنبياء من تاريخه. وقد نجح في ذلك إلى أبعد الحدود حين عرض المادة التاريخية القديمة عن عصور ما قبل الإسلام على القرآن والحديث وحققها، فأقر ما وجد منها موافقاً في نظر العلم الإسلامي ورد ما رآه مخالفاً، مبيناً ما فيه من ضعف أو نكارة أو غرابة أو شذوذ.

وهذه ميزة تفرد ابن كثير على من سبقه وخلفه من المؤرخين، فإننا لا نعرف أحداً منهم درس التاريخ القديم في مكان واحد مثل دراسته، ووقف له مثل موقفه، حتى إن المؤرخين الذين جاؤوا بعده لم يقوموا عمله ولم يسدوا الثغرات التي بقيت عند ابن كثير غير مدروسة باعتباره أول من قام بمثل هذه الدراسة، فلا غرابة أن تبقى في كتابه أخبار إسرائيلية وأحاديث موضوعة تحتاج إلى نظر جديد ودراسة أوفى من ابن كثير.

واتسمت السيرة النبوية عند ابن كثير بالطول والإحاطة الشاملة لجميع نواحي سيرة الرسول ﷺ من ولادته إلى وفاته، وقد ألحقت بها أول مرة في

التاريخ العام موضوعات أفردها العلماء المصنفون من قبل بالتأليف، وهي: الشمائل والدلائل والفضائل والخصائص التي ذكرها ابن كثير باعتبارها من متعلقات السيرة النبوية الشريفة وقد جمع ابن كثير في السيرة أكبر قدر ممكن من المواد ـ لا مجال للمزيد عليها ـ من كتب السير والمغازي والتواريخ القديمة ودواوين المحدثين الكثيرة، مما زاد من قيمة هذا القسم كثيراً في تاريخه، أما تاريخ الإسلام، فقد دون فيه ابن كثير تاريخ نحو ثمانية قرون، تعرض فيه للكلام على أحداث إسلامية كبرى واختلفت فيها الآراء وتشعبت فيها مناهج التفكير، فأدلى فيها بآرائه، بناها على العلم والتحقيق والدليل.

وقد أبرز ابن كثير في «تاريخ الإسلام» نواحي مشرقة زاهرة، حثاً للمسلمين على عمل الخير واتباع الحق، كما أشار إلى ما طرأ على المسلمين من ضعف وانحطاط في بعض العصور، وبين سبب ذلك للنصيحة والعبرة والدرس، وقد كان لجمعه بين الحوادث والتراجم أثر في احتواء تاريخه على أخبار علمية وثقافية إلى جانب الحوادث السياسية والفتن والحروب.

وكان ابن كثير في «تاريخه» قوي الملاحظة، دقيق الربط بين أجزاء الحوادث ولو تباعدت أيامها، فلم يترك شاردة ولا واردة إلا أحصاها. وعلى هذا فإن كتابه سجل قيم للتاريخ السياسي والاجتماعي والعلمي والأدبي والثقافي للبلاد الإسلامية عامة ولدمشق والبلاد الشامية خاصة.

وقد اتصف ابن كثير بتحري الصدق، والتزم التثبت من الحقيقة، واجتنب التحيز والميل مع الهوى، إلا أننا نرى عنده أحياناً لوناً من الجدل والمناظرة في مسائل خلافية، مثل الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب، والخلاف بين أهل السنة و بين الشيعة، وفي ذكر الفرق المنحرفة الخارجة على الإسلام، فإنه في مثل هذه المواضع يناظر ويجادل ويقرع الحجة بالبرهان؛ ليثبت لما يعتقده صحيحاً في نظره، فهو هنا ليس مؤرخاً بل هو منا عالم ديني شديد التمسك بموقف أهل السنة، يلسع بالنقد اللاذع من يخالفه ويجاهر بالعداء من ينابذه، ولا يتحرز من تخطئتهم وتكذيبهم وتجهيلهم ولعنهم على طريقة أهل الجدل والمناظرة.

تميز ابن كثير بجرأته في الحق وصراحته في النقد حتى في حوادث عصره، لا يحاكي أحداً ولا يجامل ولا يخاف في الحق لومة لائم لهذا كله ولهذه الدقة والنزاهة والنقد والصراحة. كانت سبباً في إثارة إعجاب المؤرخين والعلماء به بعده، كما كانت سبباً في تقدير الدارسين له في عصرنا.



فهرس الموضوعات

الموضوع صفحة

المقدمـة ٥
المبحـث الأول : مفهوم التاريـخ وأنماطـه ٧
تعريف التاريـخ ٧
مقاصد المؤرخيـن ٨
الفوائـد الدنيوية للتاريـخ ١٣
الفوائد الأخرويـة ١٤
أنماط التاريـخ ١٦
١. الأخبار ١٦
٢. المغازي والسير ١٨
٣. الحوليـات ٢١
٤. كتب التراجـم ٢٣
٥. كتب الأنسـاب ٢٨
المبحـث الثاني : مدارس قراءة التاريخ الإسـلامي ٣١
الاستشراق وتفسـير التاريخ ٣١
المـدارس الغربية في قراءة التاريـخ ٣٩
النظرة الإسـلامية للتاريخ ٤٢
خصائص الحضارة الإسـلامية ٥٢
المبحـث الثالث : عرض لبعض مصادر التاريخ الإسـلامي ٥٦
السـيرة النبوية ٥٦
زاد المعـاد في هدي خير العبـاد ٥٦
العواصم من القواصـم ٥٩
تاريخ بغـداد ٦٢
تاريخ الإسـلام للذهبي ٦٤
البداية والنهايـة ٦٧

عن المؤلف

- الدكتور مجيد الخليفة.
- دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة بغداد.
- دكتوراه في الحديث النبوي الشريف من جامعة القرآن الكريم والدراسات الإسلامية (الخرطوم).
- له ما يقرب من الأربعين كتاباً ما بين تحقيق وتصنيف وتأليف .
- المشرف العام على مشروع موعظة الدعوي (mw3ada).
- للتواصل واتساب : 0036704094380



Hawally - Mothanna ST. - Badri complex
E-mail : darandalusia@hotmail.com
Mobile : (+965) 94 74 71 76